

سُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي الْعَقِيدَةِ

في العقيدة الإسلامية

إن رجال الأمم الإسلامية ترتفع أصواتهم في كل مكان في الآونة الحاضرة منادية بالإصلاح ، وعاملة على الأخذ في سبيله ، من أجل مايتمناه الجميع من نهضة نرجو الله أن تأخذ طريقها السليم .

ولاريب في أن مشكلة الإصلاح الإسلامي لاتزال في حاجة إلى معالجتها في إجمالها وعمومها . ماهو الأساس ، وماهى العناصر التى يقوم عليها الإصلاح الإسلامى فى الأسرة ، فى المدرسة ، فى الجامعات ، فى المجتمع الكبير ، مجتمع الأمة الإسلامية ؟ .

وإن أمل المسلمين الغيورين أن يوفق الله المصلحين والباحثين وحملة الأقلام إلى أن يصدروا فى توجيهاتهم وفى إصلاحهم عن الإسلام . يتخذونه أساساً يستنبطون بمبادئه وأهدافه .

وبعض الناس حينما يثار موضوع الإصلاح يتجهون عادة إلى أوروبا وأمريكا ، أى إلى الحضارة الحديثة ، يستلهمونها التوجيه فى المنهج والموضوع ، إنهم يستلهمون أوروبا فى منهج الإصلاح وموضوع الإصلاح الذى يرون تطبيقه فى الأمم الشرقية الإسلامية . غير مراعين فى ذلك اختلاف البيئة ، واختلاف الدين ، واختلاف العرف والتقاليد ، واختلاف الماضى الحضارى .

ومن أجل ذلك يتساءل كثير من الناس .

ماموقف المسلم من الحضارة الحديثة ؟ .

وما موقف علماء الإسلام منها ؟ .

والواقع أن هذا الموضوع أثار كثيراً من الجدل والنقاش فى مختلف الأقطار الإسلامية والشرقية ، ولم ينته الحديث فيه بعد ، فلا يزال الجدل للآن فيه مستمرا ، ولاتزال الندوات تعقد هنا أو هناك ، والمقالات تبحر فى هذه المجلة أو تلك . . يرى قوم أن سبيل الإصلاح هو أن نأخذ الحضارة الحديثة ككل ، نأخذها بما لها وما عليها ، نأخذها بدون تمييز ولا تقييد .

ومنذ عهد ليس ببعيد وقف أحد كبار الشرقيين فى ندوة جمعت بين كبار رجال الفكر وكبار

علماء الدين وأعلن .

لِمَ نتنكر للحضارة الحديثة ؟

هذه الطائرات التى نستخدمها ، هذه الأدوية التى نستعملها ، مستحضرات التجميل هذه

التي نسعد بها ، أليست ثمار الحضارة الحديثة ، إنه يجب علينا عرفاناً بالجميل أن نأخذ الحضارة الحديثة ككل ، نأخذها وحدة لا تنقسم وليس هذا رأى هذا المفكر وحده ، وإنما هو رأى طائفة كبيرة في الشرق تدعو إلى أخذ الحضارة الحديثة ككل دون استثناء شيء منها .

١ - إن الحضارة الحديثة في رأيهم حضارة متكاملة مادة ، ومعنى ، شكلاً وجوهرًا فلنأخذها ككل .

٢ - ويعارض هؤلاء كثيرون . يرفضون الحضارة الحديثة جملة وهذا الرفض قد يكون كثيرًا في الأفراد. بيد أن بعض الدول تبته أيضًا ، حاولت بعض الدول في الماضي أن ترفض الحضارة الحديثة كلية وأن تغلق في وجهها الأبواب ، ولم توفق الدول ولم يوفق الأفراد أيضًا فيما يتعلق بهذه المحاولة .

٣ - والرأى الثالث يرى أنه علينا أن نأخذ الحضارة المادية ، أما الحضارة النظرية فإننا نأخذ منها الصالح ونترك منها غير الصالح . وهذا الرأى يبدو أنه رأى الأغلبية .

هذه هي مجموعة الآراء فيما يتعلق بالموضوع ، بل هي تقريبًا مجموعة الاحتمالات العقلية في ذلك ، ومع هذا فإننى شخصيًا لم أرتض منها رأياً . أما فيما يتعلق بأخذ الحضارة كلاً لا يتجزأ فأظن أن المسألة في الجو الإيماني وفي الجو الإسلامي السليم لا تحتاج إلى مناقشة كثيرة .

هذه الحضارة الأوربية فيها الكثير مما يخالف المبادئ الإيمانية والمبادئ الإسلامية ، فلا يتأنى أن يسود رأى كهذا في الجو الإسلامي .

أما فيما يتعلق برفضها كلية فإن هذا - واقعياً - لم يتحقق لافى الأفراد ولا فى الجماعات ، ولا فى الدول ولا فى الأقطار أيًا كانت .

ليس هناك قطر لم يستفد من الحضارة الحديثة ، وليس هناك إنسان لم يستفد من الحضارة الحديثة .

الإنسان والأقاليم والأقطار ، بل بنو آدم كلهم ، قد استفادوا من هذه الحضارة الحديثة ، وهذه الفكرة لم تتحقق فى الواقع .

ويأتى الرأى الوسط الذى ساد ويسود فى كثير من الأوساط ، والذى يبدو لكثير من الناس أنه الرأى السليم الصحيح ، نأخذ من الحضارة الحديثة ، ونترك من الحضارة الحديثة الضار والفاقد . ويتأمل بسيط يمكننا أن نرى أن هذا الرأى فاسد أيضًا ، إذ يعتمد على الاختيار العقلى وعلى

الميول البشرية للإنسان دون ملاحظة للدين ، إذا قلنا بأخذ الصالح فما هو الصالح ؟ وفي رأى من ؟

إن الصالح يختلف من إنسان إلى آخر .

إذا قلت مثلاً ٦٪ فائدة البنوك ثم تساءلت : أهذا صالح أم غير صالح ؟ يقول لك كثير من الناس بحسب عقولهم وأفكارهم وآرائهم ، يقولون لك إنه لا بأس بذلك ، لا بأس بستة في المائة في البنوك ، ويرفض ذلك آخرون .

فهل ٦٪ في البنوك صالح أخذها أوليس بصالح ؟ يختلف الناس .

ونأتى إلى مسائل أخرى متحدثين بأسلوب الدين ونقول : شرب قليل من الخمر هل هو صالح أوليس بصالح ؟

وستجد لامحالة من يقول لك ، إنه لا بأس بشرب قليل من الخمر ؟ والاستحمام المختلط على الشواطئ جماعات رجالاً ونساء ، هل هو صالح أوليس بصالح ؟ .

هل نأخذه من الحضارة الغربية أو لا نأخذه من الحضارة الغربية ؟ : ستجد أيضاً أصحاب الأهواء الشيطانية ، وأصحاب الآراء الجنسية ، يقولون لك : إن هذا صالح . الجسم صحته تتوافر في ضوء الشمس ، ويستفيد من الفيتامينات التي في إشعاع ضوئها ، و . . .

هذه القضايا - وكثير غيرها مما لا يقرها الدين - سنجد لها أتباعاً يقرونها من هؤلاء الذين يتبعون أهواءهم ، وسنجد من يقول : إن ذلك صالح .

إذا قلنا بأخذ الناحية الصالحة في الحضارة الحديثة ورفض الناحية غير الصالحة فإن الرأى لا يستقيم ، لأن الناس يختلفون فيه اختلافاً كبيراً ، ولا يتأتى التحديد : تحديد الصالح وتحديد غير الصالح ، لا يتأتى الاتفاق على التحديد مادامنا في مجال العقل فحسب ، ومادامت المسألة آخذة وضعها العقلي الفكري فقط .

مالمخرج - إذن - من هذا ؟

ماهو - إذن - موقفنا من الحضارة الحديثة إذا كنا لانقبلها ولا نرفضها ولا نقبل التوسط فيها ؟ .

وأريد أن آخذ الآن في إبداء رأينا الشخصي فيما يتعلق بالموضوع ونحن فيما يتعلق بمجال الحضارة الحديثة نرى - كما يرى غيرنا - والآراء فيما سنذكره لا تختلف تقريباً - أن الحضارة الحديثة تنقسم إلى قسمين :

القسم المادى : قسم المعامل والمصانع ، قسم الطب ، قسم الكيمياء ، قسم الطبيعة هذه

الناحية المادية البحتة من الحضارة الحديثة لا يتأتى لنا قط أن نقول إن أوروبا ابتدعتها ابتداءً أو اخترعتها اختراعاً .

وهذه الناحية نفسها - الناحية المادية - لها جانبان .

جانب المنهج - وجانب الموضوع : أما فيما يتعلق بجانب المنهج فإنه منهج الاستقراء ، وهو منهج تتبع الجزئيات للوصول إلى نتيجة كلية .

هذا المنهج الاستقرائي ، أو المنهج العلمي ، أو منهج السمع والبصر أى منهج الملاحظة - منهج

إسلامي .

لقد سار عليه الإسلام وسار عليه المسلمون قبل أن تنشأ الحضارة الأوروبية . (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مشلولاً) .

والسمع والبصر أساس الملاحظة والتجربة ، أو عنها تنشأ الملاحظة والتجربة . إن عدم اتباع

الظن والسير وراء الملاحظة ووراء التجربة . هذا منهج الإسلام اتخذهُ المسلمون منذ زمن بعيد ،

وقد اعترف الغربيون أنفسهم بأن الإسلام هو الذى بدأ بوضع المنهج التجريبي ، واعترفوا بأن

« روجيه باكون » الذى يعتبر فى أوروبا المؤسس الأول للمنهج التجريبي أخذه عن العرب ، وبأنه لم

يكن إلا تلميذاً من تلاميذ العرب . . لم يكن إلا طالباً فى مدرسة العرب . اعترفوا بهذا صراحة ،

يقول أحد كتابهم فيما يتعلق بالمنهج الخاص بالتجربة والملاحظة أى منهج الاستقراء الذى بنيت عليه

الحضارة المادية الحديثة - وهو الأستاذ « بريفولت » فى كتابه (بناء الإنسانية) يقول :

ليس « لروجيه باكون ولا لفرانسيس باكون » الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب إليهما

الفضل فى ابتكار المنهج التجريبي ، فلم يكن « روجيه باكون » إلا رسولا من رسل العلم ، والمنهج

الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية ، وهو نفسه لم يميل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه فى أوروبا

اللغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة .

ويقول فى مكان آخر من كتابه :

ولقد كان العلم أهم ماجادت به الحضارة العربية على العالم الحديث ، ويقول أيضا : لم يكن

العلم وحده هو الذى أعاد إلى أوروبا الحياة ، بل إن مؤثرات كثيرة من الحضارة الإسلامية بعثت

باكورة أشعتها إلى الحياة الأوروبية .

ويستفيض المؤلف فيما يتعلق بما للعرب وبما للمنهج العربى من أثر فيما يتعلق بالحضارة الحديثة .

لا أريد أن أطيل فى سرد نصوصه - - وهى كثيرة - - كلها تثبت أن هذا المنهج التجريبي إنما هو

المنهج الذى قامت عليه الحضارة العربية ، وأن أوروبا إنما أخذته من العرب ولم تتدعه ابتداءً ولم

تكشفه اكتشافاً . هذا فيما يتعلق بالمنهج .

أما فيما يتعلق بالموضوع فإن المؤلف نفسه الذى ألف هذا الكتاب الذى تحدثنا عن بعض آرائه ، يقول فى صراحة لابس فيها . إن العلم الأوربي مدين للعلم الإسلامى العربى فى كثير من موضوعاته ، إنه ليس مديناً فى المنهج فحسب وإنما فى الموضوعات أيضاً .

ومما هو معروف أنه كان فى الحضارة الإسلامية أفذاذ فيما يتعلق بالعلم الطبيعى ، كان هناك ابن الهيثم فى البصريات وفى الأضواء .

ويرى كثير من المؤرخين للحضارة الأوربية أن كتاب « باكون » نفسه فى الحرارة والضوء ماهو إلا نسخة من كتاب ، ابن الهيثم « فى البصريات » .

كان عندنا ابن الهيثم فى الطبيعة .

وكان عندنا الرازى وابن سينا فى الطب .

وكان عندنا جابر بن حيان فيما يتعلق بالكيمياء .

وكان عندنا الكندى فيما يتعلق بالرياضيات .

كان عندنا كل هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين تعترف أوروبا بأنها مدينة لهم إلى الآن فيما يتعلق بمنهجهم التجريبي المبني على الملاحظة وعلى التجربة .

وفما يتعلق بالموضوعات التى تطرقوا إليها واستتجوا منها النتائج التى لاتزال لها قيمتها الآن . هذا الموضوع - موضوع الطبيعة - إذا أردنا التعبير الإسلامى عنه هو على حد الكلمة التى أطلقها الشيخ (محمد عبده) وهى الكلمة التى تعبر التعبير الصحيح الإسلامى . (سنن الله الكونية) .

فالتبيعة وقوانينها واكتشافاتها وموضوعاتها والبحث فيها إنما هو البحث فى سنن الله الكونية « واكتشاف قوانينها إنما هو اكتشاف لسنن الله الكونية » .

إن الله سبحانه وتعالى يمن علينا فى القرآن الكريم بأن سخر لنا البحار والأنهار ، وسخر لنا الأرض وسخر لنا السماء ، وسخر لنا الكواكب وسخر لنا القمر ، وسخر لنا الشمس ، وسخر لنا الكون كله ، لقد سخره للإنسان ، وهو بهذا الامتنان يطلب من الإنسان أن يجوب الفضاء وأن يغوص فى الماء ، وأن يخترق كل المعميات فى هذا الكون حتى يزداد إيماناً على إيمان وإقراراً ، فيزداد فى خضوعه وفى خشوعه لعظمة الله العظيمة ، ولهيئته هذه التى لايند عنها شيء فى هذا العالم المسخر .

تتبع آيات الله فى الأنفس وفى الآفاق ، كل هذا دعوة إسلامية ، وتتبع آيات الله والتسخير

لايتأتى إلا عن طريق الملاحظة وعن طريق التجربة المنهج التجريبي المنهج الحديث : هذا هو منهج الإسلام .

ويدعونا الإسلام أيضاً - إلى أن نكون في هذا الجانب المادى أقوى مانكون .

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)

والاستطاعة لاتكاد تحد ، وكلما وصل الإنسان إلى حد من الاستطاعة تفتحت أمامه آفاق استطاعات جديدة يجب عليه أن يلجها ، فهو في كل آونة مترق في عالم الطبيعة ، وهو في كل آونة متبع لهذه القوانين مترق فيها حتى يظل دائماً في القمة ، فيكون مركزه دائماً وباستمرار القمة من القوة المادية . .

وإذا كان المسلمون قد تأخروا في هذا الجانب فليس ذلك ذنب القرآن الكريم ولاذنب الإسلام وإنما ذنب تكاسلهم وخمولهم .

وهم بهذا التأخر آثمون إسلامياً ، إنهم آثمون في نظر الإسلام وفي نظر القرآن الكريم . . فهم أصحاب دعوة ، والقرآن أعدهم من قديم لهذه الدعوة . وهم أصحاب رسالة ، وأصحاب الرسالات إن لم يكن عندهم القوة القوية ، وإن لم يكن عندهم السلطان المسيطر ، إن لم تكن عندهم السيطرة المتحكمة من أجل الخير ومن أجل العدل ومن أجل الحق ، إن لم يكن عندهم هذا فإن رسالتهم تستمر حبراً على ورق ، ولم يرد الإسلام أن تكون الرسالة الإسلامية - أو أن تستمر الرسالة الإسلامية - حبراً على ورق .

فالإسلام يدعو المسلمين إلى أن يكونوا أقوى دولة في العالم ، فإذا ما ضعفوا كانوا آثمين في نظر الإسلام ، كانوا آثمين وكانوا مقصرين في حق رسالتهم التي كلفهم الله سبحانه وتعالى بها . إنها آخر الرسالات ، إنها الرسالة الأبدية ، إنها الرسالة الدائمة ، ولا بد من قوة دائمة في هذا العالم تسندها ، فإذا لم تكن هذه القوة فإن هذه الرسالة لا يكون لها من التأثير ومن النفوذ ما يريد الإسلام منها ومن أصحابها .

الجانب المادى - إذن جانب إسلامى ، وماعلينا إلا متابعة الإسلام في هذا الطريق بكل وسيلة ممكنة ، وبكل طريقة تيسر .

ولايقال إذن - حينما نسير في الحضارة المادية مكتشفين ومخترعين ومتبينين الاكتشافات والاختراعات إننا أخذنا الحضارة الأوربية ، وإنما يقال : إننا تابعنا الخطوات التي تابعها وسار فيها أسلافنا ، وإذا كنا في هذا المجال نستعين بهذا أو ذاك فإن الاستعانة ليس معناها أخذ من الحضارة لأن هذا الجانب لالون له ، أى أن الرقى المادى لالون له ، لايقال هذه الكيمياء ألمانية أو فرنسية

أو إنجليزية وإنما هي الكيمياء أينما كانت وأينما وجدت لاتتسم بلون ، فإذا استعنا بهذا أو ذلك في سبيل متابعة أسلافنا فيما يتعلق بهذا المجال فلنستأمن متابعين وإنما نحن نواصل هذه الجهود التي بدأها أسلافنا وانقطعنا عنها فترة ونريد أن نعود إليها من جديد .

ويأتي بعد ذلك القسم الآخر من أقسام الحضارة الأوربية وهو القسم الثقافي . وهذا القسم الثقافي نبتدئ فيه بشيء من تاريخ الإسلام نفسه أو بعض الحوادث التي حدثت في ربوع الإسلام .

لقد حلّ رسول الله ﷺ بالمدينة التي نورت به ، وأخذ يعمل جاهداً على نشر الدعوة الإسلامية متخذاً كل وسيلة لبيانها وإيضاحها .

وفي يوم من الأيام - كما يروى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن جابر رضى الله عنه - أتى عمر ابن الخطاب النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي ﷺ قال : فغضب وقال : « أتتوكون » (١) فيها يا ابن الخطاب ؟ والذي نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لاتسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه ، أو باطل فتصدقونه ، والذي نفسى بيده لو أن موسى كان حياً ماوسعه إلا أن يتبعنى .

هذا الحادث رواه الإمام أحمد بوجه آخر عن سيدنا عمر رضى الله عنه ، وفيه يقول رسول الله ﷺ :

« والذي نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضلتم إنكم حظى من الأمم وأنا حظكم من النبيين » .

ولم يكف رسول الله ﷺ - بذلك بل قام خطيباً ، وكان مما قال « يا أيها الناس إني قد أتيت جوامع الكلم وخواتيمه ، واختصر لى اختصاراً وقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تتوكونا ولا يفرنكم المتوكون » .

ثم أمر بتلك الصحيفة فحيت حرفاً حرفاً .

ويبدو أن هذه الحادثة تكررت بصورة أخرى « فقد روى ابن جرير وغيره قال : جاء أناس من المسلمين بكتب كتبوا فيها ماسمعه من اليهود فقال النبي ﷺ كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره .

وتكررت المسألة مرة ثالثة ، فقد أخرج عبد الرازق فى المصنف والبيهقى فى شعب الإيمان عن

(١) أى تشككون فى شريعتكم .

الزهرى أن حفصة جاءت إلى النبي ﷺ بكتاب من قصص يوسف في كتف فجعلت تقرأه عليه والنبي عليه الصلاة والسلام يتلون وجهه ، ثم أعاد عليها ماسبق أن قال للآخرين وهو :
والذى نفسى بيده لو أناكم يوسف وأنا نبيكم فاتبعتموه وتركتموني ضللت : أنا حظكم من
النبيين وأنتم حظى من الأمم .

وفى مرة رابعة قال رسول الله ﷺ هذه الكلمة التى تبين مدى ما يجب على المسلمين نحو تعاليم
نبيهم .

لقد قال ﷺ :

« والله لو كان موسى حياً ما حل له إلا اتباعى » .

ولقد أحب رسول الله ﷺ أن تكون المسألة فيما يتعلق بأخذ المسلمين عن غيرهم حاسمة باثة ،
فلقد مر الصحابة فى يوم من الأيام على اليهود وهم يتلون التوراة فتخضع المسلمون فعاتبهم رسول
الله ﷺ قائلاً الآية الكريمة .

(أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)
وتمضى السنون ويتقل رسول الله ﷺ إلى الرقيق الأعلى ، ويتبع الصحابة هديه فى ألا يكون
كتابهم وهدى نبيهم ﷺ مجال توحىهم .

وفى يوم من الأيام بينما كانت السيدة عائشة رضى الله عنها فى بيتها إذا بها تتلقى هدية ، فظنت
أنها أهديت لها من عبد الله بن عمرو فردتها وذكرت السبب فى ردها قائلة عن عبد الله بن عمرو :
إنه يتبع الكتب ، وقد قال الله تعالى .

(أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)
فقال لها حامل الهدية ، إنها ليست من عبد الله بن عمرو ولكنها من عبد الله بن عامر فتقبلتها .
ويمضى الزمن والمسلمون يضعون أمام أعينهم قوله تعالى (وقد آتيناك من لدنا ذكراً . من
أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً . خالد بن فيه وساء لهم يوم القيامة حِملاً) .

يقول الإمام ابن كثير :

يعنى من أعرض عن هذا القرآن فاتبع غيره من الكتب فإنه يناله هذا الوعيد ، كما قال
فى الحديث المروى فى المسند والترمذى عن أمير المؤمنين على مرفوعاً وموقوفاً .
« من ابتغى الهدى فى غيره أضله الله » .

ولما تولى سيدنا عمر بن عبد العزيز الخلافة رأى أن المسلمين فى حاجة إلى معرفة أوسع بعالم

الطب ووسائل العلاج ، وفكر في تيسير الاستعانة لأطباء المسلمين بثقافات الأمم الأخرى في هذا المجال ، ففكر في ترجمة كتاب أو كتب في هذا الموضوع ، ولكنه قبل أن يقدم على الأمر سأل نفسه : إن هذا العمل عمل لم يفعل مثله رسول الله ﷺ ، ولم يفعل مثله أحد الخلفاء الراشدين ، فهل يجوز له أن يقوم بذلك ؟

وتردّد في الأمر ثم استخار الله فترة طويلة من الزمن حتى شرح الله صدره لتنفيذ الترجمة فأمر بها ، وكان الكتاب بين أيدي المسلمين ، ولم يذكر أحد من المسلمين لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه نهيًا ، ولم يرفع أحد منهم صوتًا بالإنكار عليه ، لا لأنه الخليفة ولكن لأنهم لم يروا في العمل من بأس .

وقد يتساءل إنسان عن السر في موقف الرسول ﷺ وموقف عائشة رضوان الله عليها من الإنكار على الذين يتبعون الكتب وهو موقف يختلف عن موقف المسلمين من عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : حيث كانت موافقتهم له عامة كاملة .
وهنا قبل أن نخشى في البحث تسارع بالعودة بالقارئ إلى ما سبق أن ذكرناه من التفرقة بين مجالين .

أولها : المجال المادى ، مجال الطبيعة ، مجال المادة ، مجال الأرض والسماء وما بين الأرض والسماء . وهذا المجال لا يطبع ذاتية الأمة بطابع خاص ، ولا يعطيهما لونًا معينًا لأن القوانين المادية والمبادئ الحسية لا تختلف من قطر إلى قطر ولا من بيئة إلى بيئة .

وإذا سائرت أمة أمة أخرى في هذا المجال فإنها لا تكون بذلك قد فعلت ما يضر بذاتها أو يقلل من شأن شخصيتها . والمسلمون في عصورهم الزاهرة اندفعوا إلى كشف المساطر في المجال المادى ، فكونوا حضارة مادية خصبة ، وأفادوا الإنسانية في الطبيعة وفي الكيمياء ، وفي الطب ، وفي الصيدلة وفي غير ذلك من ميادين الحس من جوانب المادة ، وهم وإن بلغوا حيثئذ مرتبة القيادة والزعامة فإنهم لم يكونوا يتخرجون من الاستفادة في هذا المجال بكل ما أنتجته الإنسانية من مكتشفات . .

والمجال الثانى : هو المجال الروحى ، وهو مجال يتضمن في خطوطه العامة : العقيدة والأخلاق والتشريع وهذا المجال هو الذى يكون ذاتية الأمة ، ويعطيهما بطابع معين ، ويعطيهما لونًا خاصًا . لقد استخار الله سيدنا عمر بن عبد العزيز أربعين يومًا في ترجمة كتاب في الطب ثم شرح الله صدره كما سبق أن بينا ، وكتاب الطب كتاب من كتب الحضارة في جوها المادى إنه كتاب من الكتب ذات الطابع المادى ، ولا بأس أن يترجم كتاب من هذا النسق أو أن يتابع أو أن يقتبس

منه ، أو أن يؤخذ في الجوانب الإسلامية من مبادئه . وتسير الحياة بالمسلمين هادئة في جوانبها الحضارية (٢) إلى أن يأتي العصر العباسي ، وتبدأ الترجمة : والترجمة لم يعترض عليها معترض فيما يتعلق بجانب الطب أو بجانب الطبيعة أو بجانب الكيمياء (٣) ، ولكن المسلمين في أول العهد العباسي كانوا نافرين كل النور من أن نترجم ما وراء الطبيعة اليونانية .

إن ما وراء الطبيعة يعنى بالأبحاث التي تتصل بالعقيدة ، وأجمع المسلمون على أنه إذا كانت عقيدة اليونان حقاً فعندنا ما هو أحق منها وهو القرآن الكريم في الأسلوب الإلهي :
وإذا كانت باطلاً فإننا في غنى عنها .

(٢) لقد كتبنا في هذا الموضوع عدة مرات في الكتب والبرائد والمجلات ومما كتبناه في ذلك مالى : إن الحقيقة التي لا يختلف فيها النصارى واليهود والمسلمون هي أن الإسلام منذ نشأته بناصر العلم ويحث عليه ويوجهه : إنه يوجب العلم في جميع الميادين وفي شتى النواحي إنه يوجب العلم بمناهج الحديث : العلم بالطبيعة والكيمياء ، وبالطب . . إنه يوجه على صورة بحيث تصيح الأمة الإسلامية كلها آتمة إذا لم تصل في هذا الميدان إلى أرق ما يمكن أن يصل إليه الإنسان .
والله سبحانه يمن علينا بأن سخر لنا البحار والأنهار ، ويسخر لنا الشمس والقمر والكواكب والنجوم ، وسخر لنا الأرض ، وسخر لنا السماء وسخر لنا ما بين الأرض والسماء .

وبعارة مختصرة : يمن الله علينا بأن سخر لنا هذا الكون بأكمله ، وأنه من شكر الله تعالى على نعمائه أن نستجيب إليه سبحانه فنسخر ما سخرنا ، نسخره بالعلم وتسلط عليه بالمعرفة وتملكه بالبحث ، ونتابع كل ذلك في تطور مستمر وفي تحديد متتابع ، ومما لاشك فيه أنه لا يتحدث أحد من المستنيرين والفجورين على الإسلام عن الغزو الفكري في هذا المجال - هو الوحيد الآن الذى يعبر عنه في الحضارة الغربية الحديثة بالمجال العلمى - سواء في ذلك روسيا وأمريكا وأوروبا وهو المجال الذى يعبر في العصر الحاضر عن التقدم والتأخر بسبب رقيه في أمة أو وضعه فيها .

(٣) ولكن الإسلام مع اعترافه بالجانب العلمى المادى ومع إعجاب له لا يعترف به كقياس لتقدم الأمة أو تأخرها ، ولكن تقدم الأمة وتأخرها بحسب المقياس الإسلامى إنما هو بتحقيقها أو عدم تحقيقها المثل العليا في الأخلاق التي أتى بها الإسلام ، وهنا تصل إلى الجانب الآخر من جوانب الحضارة الغربية ، أو تصل إلى القضية الثانية من القضايا التي نريد أن نحدد موقف الإسلام منها ، وهي قضية الثقافة . والناس حيناً يتحدثون عن الحضارة الحديثة يتحدثون عن جانبيين يتكون منها الجانب العلمى المادى ، وقد شرحنا موقف الإسلام منه ، والجانب الثقافى النظرى وهو ما نريد أن نتحدث عنه الآن ، وفي هذا المجال نبدأ بذكر حقيقتين .
أما الأولى : فهي أن النتائج البشرى كله في الجانب الثقافى النظرى هو نتاج ظنى ولا ينسب باليقين في قليل ولا في كثير ، وهو لأنه ظنى - متعارض ومتغير ومتطور وكل شخص يقول : إن هذه القضية أتتلك - في الجانب النظرى - هي قضية يقينية ، إنما هو شخص عظمى عرف ذلك أم لم يعرفه .

أما الحقيقة الثانية : فهي أن الإسلام له نظام أصيل مستقل ، إنه نظام إلهي ، إنه وحى السماء معصوم ، وهو دين ، وهو عقيدة .

ومن النقص ذات المعزى العميق أن الرسول صلوات الله عليه وسلامه رأى صحيفة بيد أحد الصحابة يقرأ فيها فسأه عنها فقال : إنها قطعة من التوراة ، فظهر الغضب على وجه الرسول صلوات الله عليه ونهاه من الاستمرار في القراءة وقال له : لو كان موسى حياً ماوسه إلا اتباعي . وهنا نلاحظ في وضوح تفرقة في موقف الإسلام من الجانب العلمى المادى ، وموقفه من الجانب الثقافى النظرى . فهو في الجانب العلمى المادى موجب وفارض ومشجع وحاث .

أما في الجانب الثقافى النظرى المتغير المتطور الظنى القابل للخطأ والصواب فإن كل دعوة للأخذ به واعتناقه والإيمان به إنما هي دعوة عبثية ، وهي دعوة آتمة إذا ما طغت على الجوانب الفكرى الإسلامى ، وهي دعوة سنكرة إذا ما أراد إنسان إجلاها محل المبادئ الإسلامية .

وكذلك شأنهم وموقفهم فيما يتعلق بالأخلاق ، كانوا يعترضون بأخلاقهم ، ويعترضون بعصبيتهم لعقيدتهم وأخلاقهم المنزلة الموحدة ، لقد كانوا يعترضون بذلك لدرجة أنهم لا يرون أن يكون هناك أى كتاب أو رأى يقوم بجوار هذه المبادئ الإلهية الإسلامية سواء أكانت عقيدة أم أخلاقاً . ولم يترجموا كتب الأخلاق إلى أن جاء المأمون . والمأمون بتربيته الفارسية كان عنده من التهاون القليل أو الكثير ، ولم يكن عنده من التحرج ما كان عند غيره ، فأمر بترجمة الكتب التى تتصل بما وراء الطبيعة والكتب التى تتصل بالأخلاق .

لقد قام بترجمة هذا على الرغم من النفور العام بين المسلمين المؤمنين المتدينين . لقد ترجم كتب ماوراء الطبيعة ، ترجم كتب الأخلاق على نفور من هؤلاء الذين يرون أن العقيدة الإسلامية يجب ألا يكون بجوارها أى شيء آخر ، وأن الأخلاق الإسلامية يجب أن تكون مستقلة لا يكون بجوارها شيء ولا تدنس ولا تلوث بما يتوهم أنه حق بجانب الحق . لكن الترجمة - ترجمة ماوراء الطبيعة - أخذت شيئاً فشيئاً مجالها ، وترجمة الأخلاق أخذت شيئاً فشيئاً مجالها - بل أصبحت مألوفة فى البيئة الإسلامية ، وأصبحت وكأنها شيء عادى ، وليست ترجمة ماوراء الطبيعة أقل شأنًا - فيما يتعلق بالجو الإسلامى الصحيح من الورقة التى كانت بيد سيدنا عمر .

إن العقيدة الإسلامية والأخلاق الإسلامية هما اللتان تكوّنان ذاتية المسلم ، أى أن ذاتية الأمة الإسلامية لا تتكون بكيمياء أمريكية لأن الكيمياء كما قلنا لالون لها ، ولا تتكون بطبيعة روسية لأن الطبيعة لالون لها .

حقيقة أنه لا بد من الكيمياء ولا بد من الطبيعة كما قلنا للقوة وللغلبة وللسلطان ولتأدية الرسالة من أجل الحق والخير .

إن الذى يكوّن ذاتية الأمة هو اللون الثقافى فيها ، وقد رأينا موقف الرسول ﷺ وموقف المسلمين الأول منه .

وعلى أى وضع إذا نظرنا إلى هذه الثقافة فى نفسها : الثقافة النظرية ، وهذا هو الجانب الذى أهتم به كثيراً ، وأريد أن أنبه الأذهان من جديد إلى أنى أتحدث عن ثقافة لا تتصل بالملاحظة ولا بالتجربة ، أى أنها ثقافة ليست بحسبة .

أحدث - إذن - عن الثقافة النظرية البحتة ، عن الفلسفة ، عن الأخلاق ، عن هذا الجانب فى علم الاجتماع الذى لا يتصل بالملاحظة والتجربة ، عن الجانب فى علم النفس الذى لا يتصل بالملاحظة والتجربة عن هذه الجوانب فى أى علم وفى أى موضوع لا يتصل بالاستقراء .

إن التجربة تتحكم فتكون فيصلا فيما يتعلق بالحق والخطأ ، لكن المجالات النظرية البحتة ليس لها هذا الفاصل الذى يفرق بين الحق والباطل .
ماوراء الطبيعة مجال نظرى بحت ، وهو يختلف من فرد إلى آخر ويتعدد بتعدد اختلاف الأفراد .

إذا جئنا للجو اليونانى فإننا نجد أن « أفلاطون » فيما يتعلق بتصور « الآلهة » يختلف عن « أرسطو » وتصور أرسطو يختلف عن تصور (الرواقين) وتصور (الرواقين) يختلف عن تصور (أبيقور) أو الأبيقوريين .

يصور أفلاطون الإله على أنه مثال للخير على رأس المثل ، أو مثال للجمال على رأس المثل ، ومع أن أرسطو من مدرسته فإنه يصور الله سبحانه وتعالى بصورة أخرى ، ويرى أنه المحرك الأول ، وهذا المحرك الأول ليس هو الذى يحرك العالم بإرادته ، وليس هو الذى خلق العالم ، وليس هو الذى صور العالم وكونه ، بل إنه لا يعلم عن العالم شيئاً مطلقاً ، إنه لا يعلم عن العالم شيئاً : يستوى فى ذلك التافه من أمره والعظيم منه إنه لا يعلم حتى مجرد وجود العالم .

وتأتى الرواقية فترى الله سبحانه وتعالى يمتزج بالكون امتزاجاً كاملاً : فهو سره وهو فى كل ذرة من ذراته ، وفى كل خلية من خلاياه ويأتى أبيقور ويقول : ليس هناك شيء اسمه الله ، وليس هناك إله ، وتختلف هذه المدارس باختلاف أفرادها ، وباختلاف رؤسائها . وقبل أن نستمر فى شرح موضوع هذه الثقافة النظرية البحتة ، قبل أن أستم فيها طويلاً أريد أن أتحدث عن قصة لها مغزاه العميق كى تكون أمام أنظارنا حينما نضرب الأمثال فيما بعد :

اجتمع سقراط باثنين من الفيثاغوريين من كبار فلاسفة الفيثاغورية أحدهم اسمه سيمياس ، وكان من كبار الفلاسفة ، اجتمعوا يناقشون فيما يتعلق بخلود الروح : هل هى باقية بعد الموت ؟ هل هى مستمرة أو أنها فانية ؟

هل الإنسان حينما يموت يموت مادة وروحاً ، أو إنه يموت مادة فقط وتبقى الروح ! وهل الروح خالدة ؟

كانوا يتحدثون فى هذا الموضوع ، ويحاولون ما استطاعوا أن يقيموا الأدلة على خلود الروح ، على أنها باقية بعد الموت ، ثم انتهى بهم الأدلة وينقطع بهم البرهان .
يقول سيمياس لسقراط : إن الموضوع مازال فى حاجة إلى بحث أكثر ، ويوافق سقراط ثم يقول متأسفاً .

إن العقل فى مجال ماوراء الطبيعة مثله مثل لوح من خشب يريد الإنسان أن يقطع به البحر فى

يوم عاصف ، أما مثل الدين بالنسبة لما وراء الطبيعة فإنه المركب ، إنه السفينة الآمنة لقطع البحر ، ويسألون جميعاً على أنه لو كان قد نزل دين يحدد هذا الأمر فإنهم كانوا يستجيبون إليه ، ويؤمنون به ويستسلمون وتهدأ نفوسهم فيما يتعلق بهذا الأمر .

ولاجدال في أن العقل في محيط ما وراء الطبيعة لوح من خشب لقطع البحر ولكنه في حقيقة الأمر لوح من خشب في كل علم نظري لاجمال للتجربة ولا للملاحظة فيه .

وتخذ أى مادة من المواد النظرية ، خذ ما وراء الطبيعة وخذ الأخلاق وخذ التشريع ، خذ هذه النواحي الكثيرة المتعددة التي سميت بأسماء علوم مختلفة وهي كلها نظرية - فإنك ستجد العقل دائماً هو لوح الخشب الذى لا يتلقى أن يقطع به الإنسان البحر مهما احتسب ومهما كان يحاول أن ينجو بهذا اللوح ، والفلسفة فيما يتعلق بالعالم الحديث وكل فلاسفة العصر الحديث مختلفون على أنفسهم ، ليس بينهم فيلسوف واحد يتفق مع الآخر ، وإلا لما كان في حاجة أن ينشئ فلسفة جديدة لو اتفق مع زميله .

ومعنى الفلسفة : أنها ابتداء دين بجوار الدين ، أو عقيدة بجوار عقيدة كذلك الأمر فيما يتعلق بالأخلاق ، إنها على هذا النسق . وكذلك الأمر فيما يتعلق بالتشريع ، إنه على هذا النسق . وإذا ترك التشريع للعقل فسيكون هناك الاختلاف ، وإذا ترك ما وراء الطبيعة للعقل فسيكون هناك الاختلاف أيضاً . والمخرج أن نصدر في كل هذه الأمور عن الدين ، ولا مجال لرأى آخر . إذا أخلصنا لا بد من أن نعتمد في المجالات الثلاث :

مجال ما وراء الطبيعة :

مجال الأخلاق :

مجال التشريع على الدين :

هذه المجالات ثابتة في الدين ، مستمرة لاتقبل التطور

مجال العقيدة لايقبل التطور العقيدة هي هي ، لاختلف العقيدة الدينية الإسلامية من بيته إلى

أخرى ، ولا من قطر إلى آخر ، ولا من زمن لزمان ، ولا من مكان لمكان .

ولاختلف الأخلاق الإسلامية أيضاً من بيته إلى أخرى ، ولا من مكان لمكان ، ولا من زمن

لزمان ، فهي هي :

أما فيما يتعلق بالتشريع فإن كثيراً من الناس يعتقدون أن التشريع الإسلامى متطور ولكن

التشريع مبادئ ووسائل ، قد يترك الإسلام بعض الوسائل غير محددة ، ويتركها للزمان ولكن

المبادئ أو الغايات هي هي :

مثلا : مبدأ الشورى : لم يحدد وسيلته الإسلام ، أى أن الشورى نفسها مبدأ إسلامى ثابت ، ووسيلة الشورى لم يحددها الإسلام ، وتركها للبيئات وتركها للأزمان ، يحدونها عن طريق البرلمان ، عن طريقة أخرى ، يحدونها كيفما شاءوا .

لكن الغايات ، النهايات ، المبادئ ، القواعد ، إنها ثابتة ، ويتساءل كثير من الناس وما شأن الاجتهاد إذن ؟

إن المجتهدين فى الإسلام كثيرون ، فما شأن الاجتهاد فى الدين إذن ؟ والواقع أن هذا الجانب يضلّ فيه كثير من الناس ، أو يزلّ فيه كثير من الناس .

الاجتهاد فى الإسلام معناه : أن يحاول المجتهد ما استطاع ، وأن يحاول ما أمكنه ، أن يربط بين حادثة حدثت جديدة وبين قاعدة إسلامية موجودة ، أو أن يدخل فى نطاق قاعدة إسلامية عامة حادثة من الحوادث التى حدثت جديدة ، فليس الاجتهاد إذن ابتداءً أو اختراعاً أو تطوراً ، وليس فيه شيء من هذا القبيل ، وإنما هو محاولة جديدة كادحة دائمة مستمرة ، للوصول إلى ما كان عليه الرسول ﷺ ، لو كان الرسول موجوداً .

وإذا صح الحديث فهو مذهبي ، قاعدة تنقض كل شبهة من الشبهات التى ترمى إلى أن الاجتهاد ، إنما هو ابتداء ، أو هو اختراع ، أو هو شيء من هذا القبيل . ليس إذن فى الجانب الإسلامى تطور ، أقول هذا ، لأنه من أخطر الأمور على العقيدة الإسلامية ، وعلى الجو الإسلامى ، الفكرة التى تسود فى كثير من الأوساط وهى سائدة فى الثقافة الأوروبية الآن ، أعنى فكرة التطور ، وفكرة التطور تناسب مع الثقافة فى أوروبا .

والثقافة فى أوروبا - الثقافة النظرية - التى لاتصل بالتجربة أو بالملاحظة ، الثقافة النظرية فى أوروبا متطورة ، وهذا حقيقى ، متطورة لأنها بشرية ، وكل ما هو بشرى من نتاج العقل البشرى فإنما هو نسبي ، وهو إذن متطور ، وقد يكون هذا التطور تطوراً إلى القديم لانتطوراً إلى شيء جديد ، يعنى مثلاً مذهب الوجودية الحالى ، الذى يقال إنه مذهب جديد كل الجدة إنما هو مذهب السفسطائية القديم ، لا أكثر ولا أقل - إنه المذهب الذى يرى أنه ليس هناك حقيقة مطلقة ، وإنما الإنسان يكيف نفسه ، ويكون نفسه ويوجه نفسه .

وهو ليس فى هذا إلا فرداً من الأفراد ، له رأيه الخاص ، لذلك لا يسرى رأيه على الآخرين ، لأنه ليست هناك حقائق مطلقة ، فهو عودة إلى المذهب القديم - مذهب السفسطائية القديم - المذهب الذى لفظته كل الهيئات السليمة ، إنه عودة إلى مذهب تلفظه كل البيئات السليمة . ومذهب الوجودية فى الحقيقة والواقع لا يسود إلا فى البيئات المريضة التى لاترى وزناً للقيم

الأخلاقية ، ولا للدين ، ولاللحقات المطلق ، وترى أن الإنسان يكوّن نفسه من الألف إلى الياء ، مستقلا عن التقاليد ، وعن الدين ، وعن كل شيء في المجتمع ونعود إلى فكرة التطور . لقد نشأت مع (دارون) وكانت لها شهرة قوية في أوساط أوروبا ، وفي أوساط الشرق ، ولكن هذه الفكرة نفسها - باعتراف كل العلماء - فيها الفجوات التي نجعلها ظنية لا يقينية إنها فكرة ظنية لم تصحح يقيناً ، وكثير من العلماء هاجمها وعارضها ، وأقام الأدلة على انهيارها ، ولكنها مع ذلك سارت في بعض الأوساط الشرقية ، وأصبحنا الآن - وهذا هو الخطر الذي نحذر منه - أصبحنا الآن نرى كتباً بأقلام المسلمين وبأقلام المفكرين الكبار ، تقول بفكرة التطور ، وكأنها حقيقة موجودة .

ومامن شك في أن هناك التطور المادى ، لا ينكر ذلك أحد ، هناك تطور من الفحم إلى ابور الغاز ، إلى البوتاجاز ، وهناك التطور من السيارة إلى الطائرة .

هناك التطور المادى لا ينكر ذلك أحد إطلاقاً ، ولكن هذا التطور لا دخل له مطلقاً ، ولا شأن له مطلقاً بتطور العقل ، من حيث هو عقل الإنسان .

إن الإنسان من حيث هو الإنسان لم يتطور عقله من حيث هو عقل ، لم يكن مثلاً عشر درجات ، ثم أصبح خمسين درجة أو ما شاكل ذلك .

الإنسان لم يتطور إلى كائن آخر ، إنه لا يزال هو الإنسان الذى وجد من عهد آدم إلى الآن ، ولكن من المؤسف أن بعض المفكرين في الشرق يسرون في الأمر وكأن التطور حقيقة واقعة . وكأن التطور العقلى واقعة ، وكأنه يقين مطلق ، وفي هذا خطورة كبيرة .

أضرب مثلاً للخطورة حينما تلخل فكرة التطور في مسائل الدين « إن أحد كبار المفكرين الإسلاميين وله شهرة ذائعة في الجوا الإسلامى ، حينما أراد أن يفسر القرآن ، وحين أراد أن يفسر قصة سيدنا آدم وخلق سيدنا آدم ، وأمر الله سبحانه وتعالى بالسجود ، وكان في ذهنه فكرة التطور ، وأن الانسانية بدأت بكذا وكذا ، وأن آدم ليس هو أول الإنسانية مباشرة ، يعنى أن الإنسانية لم تبدأ بآدم مباشرة كان في ذهنه كل ذلك ، فلما جاء يفسر القرآن ويفسر قصة آدم ، فسرها على أنها تصوير ، مجرد تصوير ، مجرد تمثيل ، مجرد قصة » .

مجرد قصة لماذا ؟

مجرد تمثيل ، لماذا !

مجرد تصوير ، لماذا ؟ .

ليخرج من فكرة التطور ، وحتى لا يلتزم قضية أن آدم هو أول البشرية حقاً ، أول البشرية

خلق خلقاً جديداً ، أنشأه الله سبحانه وتعالى ، سواء بيديه ، ونفخ فيه من روحه .
 وإذا كانت قصة آدم تمثيلاً ، وإذا كانت تصويراً ، فلا يبقى شيء في القرآن لا يمكن أن
 يؤوّل ، إذا أولنا قصة آدم ، إذا أولنا قصة سجود الملائكة ، إذا أولنا كل ذلك . . .
 وقد ذكرت في القرآن عدة مرات ، إذا أولناها لا يبقى في القرآن أو في الإسلام شيء لا يمكن
 أن يؤوّل ، وفي تأويل كل شيء القضاء على الإسلام .

وعلى هذا ففكرة التطور يجب ألا تدخل في المحيط الفكري الديني للمسلمين ، وكل من
 أدخلها في المحيط الفكري الديني الإسلامي إنما يضر الإسلام ويكون خطراً على الإسلام أكثر من
 العدو القاتل .

هذا الصديق الجاهل يكون خطراً على الإسلام ، أكثر من العدو العاقل .
 وهذا مثل ، مجرد مثل من الأمثلة الكثيرة . وعلى كل حال ، فإن الكتب الحديثة تجدها دائماً
 قاتلة بفكرة التطور ، وإن الإنسانية تطورت وإنها . . . إلخ . . .

كل هذه النواحي إذا أدخلناها في محيط العقيدة ، أو أدخلناها في محيط الأخلاق أو أدخلناها
 في محيط الدين ، فإنها تجعل من الدين مجموعة من المبادئ النسبية ، ومعنى مجموعة من المبادئ
 النسبية ، أنها ليست حقائق مطلقة ، وأنها يمكن أن تتطور وتتطور إلى اللانهاية ، ويأتي يوم من
 الأيام وقد انفصلنا عن الدين وعن المبادئ الدينية الانفصال الكامل والانفصال التام .

فكرة التطور فيما يتعلق بالحضارة الحديثة قام بها (دارون) ويعترف اليهود أو يعترف
 الصهيونيون ، في كتابهم أو مبادئهم « برتوكولات حكماء صهيون » يعترفون بأنهم هم الذين وضعوا
 (دارون) في الأفق على المنصة ، وهم الذين أعلنوا عنه ، وهم الذين أذاعوا فكرته ، وهم الذين
 حبسوها ، وهم الذين نشروها في كل مكان .

ولقد فعلوا ذلك لأنها تقوض الأديان من أساسها ، وهي مع ذلك كما قلنا - فكرة ظنية ،
 وكلما تقادم العهد بها ازداد الشك فيها . الثقافة الحديثة ، أو الحضارة الحديثة في جانبها الثقافي ،
 إذا رحبنا بها ، فإن ذلك يعد من الحجب التي تحجب شيئاً فشيئاً الفكرة الإسلامية والذاتية
 الإسلامية ، وأنه لمن المعقول أننا عندنا القرآن وعندنا السنة ، وقد طبق القرآن وطبقت السنة
 فكان ازدهار الأمة الإسلامية وكان مجدها . . .

من المعقول أن تصدر في ثقافتنا عن ذاتية إسلامية عن قرآن وسنة ، وكل هذا البريق فيما يتعلق
 بالحضارة الحديثة في جانبها الثقافي يجب ألا نجدعنا مثلاً : الحرية والمساواة . ومن الغريب أن
 الأوروبيين أنفسهم من كبار المفكرين في أوروبا نفسها ، يرون أن هذين المبدأين متعارضان :

يرون أنه إذا وجدت الحرية فلإسواة .

وإذا وجدت المساواة فلا حرية .

يرون التعارض في المبدئين وأنها لا يجتمعان ، لأنه إذا وجدت المساواة ، فكيف يتأتى أن توجد الحرية .

ومن هذه الأشياء في الجانب الثقافي أيضًا : ما يقال من أن العلم للعلم ، أو الأدب للأدب ، أو الفن . . . كل هذه لها خطورتها فيما يتعلق بالأجواء الإيمانية ، في جو الإيمان لا يتأتى مطلقاً أن يكون الأدب للأدب ، وإنما الأدب للأخلاق وللفضيلة ، لترقية الفطر ، لإثارة الشعور الديني الكريم ، لكل هذه المعاني .

أما فكرة الأدب للأدب فإنه لا يستسيغها مطلقاً ، عقل أو قلب مؤمن ، كذلك فيما يتعلق بالفن للفن ، الفن للفن معناه أنك ترسم الصورة العارية كما شئت .
الفن للفن أيضًا فكرة لا يتأتى للمؤمن أن يقول بها وأن يمتدحها أو أن يتبناها شعاراً له هذه النواحي كلها وكثير غيرها فيما يتعلق بالثقافة الغربية الحديثة : الثقافة النظرية يجب أن تكون بعيدين عنها كل البعد ، وأن تتبع في هذا الجانب الإسلامي وحده ، نجعله الأساس ، نجعله المصدر الموجه .

إن هذه الآراء الثقافية النظرية الحديثة ، هي كما يقول أحد كبار المفكرين في أوروبا مثلها كمثلي « الموضة » وأزياء النساء تتبدل من عام إلى عام ، ومن فترة إلى فترة .
إن « موضة » هذا العام في علم النفس مثلاً هي كذا هي نظرية فلان ، أو هي نظرية فلان ، أو هي نظرية فلان ، والموضة في العام المقبل أو في العام الماضي نظرية أخرى . . . وهكذا الأمر فيما يتعلق بالفلسفة ، أو فيما يتعلق بالتشريع . . . إلخ .

هذه النواحي كلها تجعلنا حذرين فيما يتعلق بالقسم الثقافي في الحضارة الحديثة ، بل يجب أن نكون بعيدين عنه كل البعد ، وأن نقرأه لاعلى أنه حقائق ومبادئ ، وإنما على نتاج بشري متغير منطور نسبي لا ثبات له ، وإذا قرأناه على هذا الوضع انتفى بعض الضرر منه .
ويجب أن نصدر عن ذاتية إسلامية ، وعن مبادئ إسلامية ، عن قاعدة إسلامية عن جو إسلامي .

والنتيجة التي أريد أن أنتهي إليها . وهي الخاتمة إنما هي العودة إلى الإسلام .
العودة إلى الإسلام :

١ - ملاحظة وتجربة ، ومنهجاً وقوة مادية .

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) .

العودة إلى الإسلام : من تسخير الأرض ، وتسخير السماء وتسخير ما بين الأرض والسماء
وتسخير الكواكب ، وتسخير الشمس والقمر ، وتسخير البحار والأنهار .
العودة إلى الإسلام أقوى ماتكون في الجانب المادى .
٢ - والعودة إلى الإسلام ، والاعتزاز بالإسلام أقوى ماتكون في الجانب الثقافى ، سواء
اتصل ذلك بالعبادة أو اتصل ذلك بالتشريع ، أو اتصل ذلك بالأخلاق .

في التعريف بالإيمان

يقول الله تعالى (قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) .

ويقول سبحانه : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم)

ويقول رسول الله ﷺ فيما رواه البخارى عن أنس . « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، وفيما رواه البخارى . عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « فالذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده » .

وفيما رواه البخارى : عن أنس قال : قال النبي ﷺ « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » .

وفيما رواه البخارى : عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله ﷺ مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء فقال رسول الله ﷺ : دعه فإن الحياء من الإيمان .

وقد كتب الإمام البخارى رضى الله عنه في صحيحه كتاباً عن الإيمان سار فيه على هدى الكتاب والسنة والصحابة والتابعين وسلف الأمة وقد قدم للكتاب بمقدمة يستدل فيها بآيات الكتاب الكريم وكانت أحاديث كتاب الإيمان كلها موجهة لليقين بأن الإيمان قول وفعل . يقول الإمام البخارى عن الإيمان :

وهو قول وفعل ويزيد وينقص قال الله تعالى . . . ثم أخذ يبرهن على رأيه بالآيات القرآنية نذكر منها .

- (ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) (٤) .
 (وزدناهم هدى) (٥)
 (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) (٦) .
 (والذين اهتدوا زادهم هدى وأتاهم تقواهم) (٧) .
 (ويزداد الذين آمنوا إيماناً) (٨) .
 (وقوله : (أيكم زادته هذه إيماناً ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً) (٩) .
 (وقوله جل ذكره (فاخشوهم فزادهم إيماناً) (١٠) .
 (وقوله تعالى (ومازادهم إلا إيماناً وتسليماً) (١١) .

قد أفلح المؤمنون :

وإذا كان هذا رأى البخارى رضى الله عنه فإن أبا الحسن على بن خلف يقول فى شرح صحيح البخارى : « مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها أن الإيمان : قول ، وعمل يزيد وينقص » .

- (٤) (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم والله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً ، يُسَخِّلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً) .
 (سورة الفتح آيتا ٤ ، ٥)
 (٥) (نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططاً) .
 (سورة الكهف آيتا ١٣ ، ١٤)
 (٦) (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مرداً)
 (سورة مريم - آية ٧٦)

(٧) سورة محمد - آية ١٧ .

(٨) (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ، كذلك يضلل الله من يشاء ، ويهدى من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو ، وما هى إلا ذكرى للبشر) .

سورة المدثر آية (٣١) .

(٩) (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون) .

(سورة التوبة - آية ١٢٤) .

(١٠) (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) .

(سورة آل عمران آية : ١٧٣)

(١١) (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً) .

سورة الأحزاب آية (٢٢) .

ويقول عبد الرزاق حسبا ذكره الإمام النووي في شرح مسلم .
سمعت من أدركت من شيوختنا وأصحابنا : سفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، وعبيد الله
ابن عمر ، والأوزاعي ، وعمر بن راشد ، وابن جريح ، وسفيان بن عيينة ، يقولون : الإيمان
قول وعمل ويزيد وينقص .

وهذا قول ابن مسعود ، وحذيفة ، والنخعي ، والحسن البصري ، وعطاء ، وطاوس
ومجاهد ، وعبد الله بن المبارك .

ويتابع عبد الرزاق الحديث فيقول :

فالمعنى الذى يستحق به العبد المدح والولاية من المؤمنين هو إثباته بهذه الأمور الثلاثة :
التصديق بالقلب . والإقرار باللسان ، والعمل بالجوارح ، وذلك أنه لاخلاف بين الجمع أنه لو
أقر وعمل على غير علم منه ومعرفة بربه لا يستحق اسم مؤمن ، ولو عرفه وعمل وجحد بلسانه
وكذب ما عرف من التوحيد لا يستحق اسم مؤمن ، وكذلك إذا أقر بالله تعالى ، وبرسلة صلوات
الله وسلامه عليهم أجمعين ولم يعمل بالفرائض لا يسمى مؤمناً بالإطلاق وإن كان من كلام العرب
يسمى مؤمناً بالتصديق فذلك غير مستحق في كلام الله تعالى لقوله عز وجل .

(إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى
رهبهم يتوكلون، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقا) فأخبرنا
سبحانه وتعالى أن المؤمن من كانت هذه صفاته .

وما ذكره عبد الرزاق يؤيده ابن بطال في باب من قال الإيمان هو العمل من شرح صحيح
البخارى فيقول : فإن قيل قد قدم أن الإيمان هو التصديق . قيل التصديق هو أول منازل
الإيمان ، ويوجب للمصدق الدخول فيه ، ولا يوجب له استكمال منازل ولا يسمى مؤمناً مطلقاً .
هذا مذهب جماعة أهل السنة : إن الإيمان قول وعمل .

قال أبو عبيد : وهو قول مالك ، والنووى ، والأوزاعي ومن بعدهم من أرباب العلم والسنة
الذين كانوا مصابيح الهدى وأئمة الدين من أهل الحجاز والعراق والشام وغيرهم .

قال ابن بطال ، وهذا المعنى أراد البخارى رحمه الله إثباته في كتاب الإيمان وعليه بوب أبوابه
كلها . فقال .

باب أمور الإيمان .

وباب الصلاة من الإيمان .

وباب الزكاة من الإيمان .

وباب الجهاد من الإيمان . وسائر أبوابه .

وإنما أراد الرد على المرجحة في قولهم إن الإيمان قول بلا عمل وتبين غلطهم وسوء اعتقادهم ومخالفتهم للكتاب والسنة ومذاهب الأئمة .

وينهج الإمام الطبري هذا النهج أيضًا فيقول : « الإيمان - كلمة جامعة الإقرار بالله وكتبه ورسوله ، وتصديق الإقرار بالفعل » ا . هـ .

بيد أن العامة - وهي دائماً الأكثرية - انتهت بالإيمان إلى أن أصبح - على حد تعبير الشيخ محمد عبده « يطلق عند الناس على ذلك الاستسلام التقليدي الذي لم يأخذ من النفس إلا ما أخذ اللفظ من اللسان ، وليس له أثر في الأفعال ، لأنه لم يقع تحت نظر العقل ، ولم يلحظه وجدان القلب ، بل أغلقت عليه خزانة الوهم ، ومثل هذا الذي يسمونه إيمانًا لا يفيد في إعداد القلب للاهتداء بالقرآن .

وهذا الذي غلب على العامة من معنى الإيمان ، أثر على بعض علماء الكلام أنفسهم فتناقشوا نقاشًا طويلًا في معنى الإيمان ، وهل هو التصديق بالقلب فحسب بالغًا ما بلغ هذا التصديق من الضعف والسلبية أو إنه تصديق وفعل ، وقد أراق المتكلمون كثيرًا من المداد لتجبير العشرات من الصفحات في هذا الموضوع .

وإذا تدخلت العامة في الشؤون العلمية ، وإذا تأثر العلماء بآراء العامة ، متخلفين بذلك عن القيادة ، متخلفين بذلك عن القيادة الرشيدة ، فإن الأمر ينتهي لامحالة بأن ينزل العلماء إلى المستوى الشعبي « شاعرين بهذا التزول أو غير شاعرين » : ومن هنا كان الرأي يسود في بعض أوساط المتكلمين : أن الإيمان مجرد التصديق مهما كانت منزلة هذا التصديق من الهزل والسلبية وكان من فضل الله علينا أن بين لنا سبحانه مقاييس الإيمان في كتابه الكريم ، والصور الإيمانية في هذا الكتاب الخالد لا تكاد تحصى .

وكان من فضل الله أيضًا أن الرسول صلوات الله عليه ، بكلامه ، وفعله ، وسيرته يحقق مثلًا أعلى للإيمان كما أراد الله ورسوله .

ونريد - بتوفيق الله - في حديثنا عن الإيمان : أن نتخذ الأساس القرآن الكريم وأحاديث صحيحة رواها الإمام البخاري والإمام مسلم في أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى ، وقد ذكرنا بعض الآيات القرآنية فيما سبق .

أما الأحاديث : فغن أبي هريرة رضي الله عنه يقول رسول الله ﷺ ، الإيمان بضع وستون شعبة ، والحياة شعبة من الإيمان ، رواه الإمام البخاري . وروى الإمام مسلم عن أبي هريرة عن

رسول الله ﷺ قال : « الإيمان بضع وستون أو بضع وستون شعبة » فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان .

وحينا بنى سادتنا العلماء المحققون - الذين أخلصوا لله ورسوله - تلك الشعب عن طريق الأحاديث الشريفة التي وضّحت الإيمان ، وعن طريق الآيات القرآنية الكريمة التي تحدّثت عن الإيمان : قسموا تلك الشعب إلى ما يختص منها بالقلب ، وما يختص باللسان ، وما يختص بالبدن أي أن الإيمان يغمر الكيان الإنساني كله ، اعتقادًا وقولًا وفعلًا .

ومن الأحاديث الشريفة تبين أن الحب في الله والبغض في الله من الإيمان ، وأنه لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

وإن الذي يؤذى جاره ليس بمؤمن .

وليس بمؤمن من شبع وجاره جائع .

وإن الجهاد من الإيمان يقول صلوات الله عليه وسلامه . « انتدب الله لمن خرج في سبيله ، لا يخرجه إلا إيمان بي ، وتصديق برسلي ، أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة ، أو أدخله الجنة ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية ولوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيأ ثم أقتل ، ثم أحيأ ثم أقتل » .

ومنها تبين أيضًا أن قيام ليلة القدر من الإيمان والإنصاف من النفس من الإيمان وبذل السلام للعالم من الإيمان . والإنفاق من الإقتار من الإيمان .

وتطوع قيام رمضان من الإيمان .

والصلاة من الإيمان ، بل لقد عبر الله عنها بالإيمان في قوله تعالى : (وما كان الله ليضيع إيمانكم) .

ويتغلغل الإيمان في الحياة الاجتماعية حتى يصل إلى السهل من أمرها والميسور فتكون إماطة الأذى عن الطريق من الإيمان ، ويكون إفشاء السلام - تعارفًا وتوددًا من الإيمان .

وإذا ماتغلغل الإيمان في النفس وجد المؤمن حلاوة الإيمان وهو لا يتم بحلاوة الإيمان إلا . . . « أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله وأن يكره أن يعود في الكفر ، كما يكره أن يقذف في النار »

وأساس الإيمان على كل حال هو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . والإيمان بالقدر خيره وشره .

وهذا الأساس كأساس القصر بالضبط ، وكما لا يطلق على أساس القصر أنه قصر فكذلك لا يطلق على أساس الإيمان أنه إيمان كامل ، وكما لا يكون القصر بدون الأساس فإنه لا يوجد الإيمان بدون الشهادتين .

وهذا الأساس نفسه يتبلور في شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

في أساس الإيمان

أشهد أن لا إله إلا الله :

من روائع مناجاة ابن عطاء السكندري مايلي . (١٢)
 « إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك .. أن يكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك » .
 متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك ؟ اهـ » .

إن مسألة وجود الله لم تكن في يوم من الأيام محل بحث عند ذوى الشعور الدينى السليم . ولم ينشأ الجدل في هذه المسألة إلا في العصر اليونانى : فهو العصر الذى جعل منها مشكلة قابلة للأخذ والرد والقبول والرفض .

والواقع أن ظروف العصر اليونانى القديم هي التي جعلت منه مثلاً سيئاً في كل ما يتعلق بالدين والخلق . لقد كان عصرًا خلا من الدين الحق ، ولم ينعم بالمعرفة الصحيحة عن طريق الوحي . فحاولت طائفة منه أن تصل إلى الوحي عن طريق الكهانة ، ومن ذلك كاهنات معبد دلفي المشهورات .

وحاولت طائفة أخرى أن تصل إلى الوحي عن طريق النسك والعبادة والذكر ، ومن هؤلاء فيثاغورث وأتباعه ، وأفلاطون والأفلاطونيون القدماء منهم والمحدثون . لقد حاولوا أن يقتنصوا الوحي اقتناصًا وأن يكشفوا عن الحجب ، وأن يزيلوا الأفتحة وأن يصلوا إلى الله ، فيتصلوا بالجمال والجلال والخير المطلق .

بيد أن الطريق الذى سلكوه إنما هو طريق خاطئ لأنه لم يؤسس على وحي يرسم طريق الهداية الصحيح ، إنما أسس على نهج عقلى بشرى أو على تقاليد متوارثة .
 ومن أجل ذلك لم ينتج الثمرات المرجوة ، ثم هو طريق صعب المرتقى ، لأنه يعارض النزعات

(١٢) حينما يكب الكاتبون عن الإيمان بيدهم عادة بإثبات وجود الله سبحانه ويتخيلون أن هذه المسألة أهم ما في موضوع الإيمان ، وهذا النهج - فيما نرى - لا يقره دين ولا تفرقة فطرة . وقد حاولنا أن نستفيض في بيان رأينا في هذا النهج مبينين أن الدين لا يوضع مسألة وجود الله موضع بحث ، وأن الفطرة السليمة لا تفرق بذلك .

الحيوانية في الإنسان ويحاول السمو بها وإعلاءها ، ويريد أن يرق بالإنسان إلى ما يقرب من المستوى الروحي الملائكى .

ولكن بنى البشر في الأغلب منهم يخلدون إلى الأرض ويتبعون أهواءهم . لذلك كانت قلة قليلة تلك الفئة التي حاولت اتباع هذا التيار في صرامة وإخلاص .

أما الأغلبية العظمى من اليونان فقد اتبعوا التيار الذى يعتمد على العقل البشرى اعتمادًا كليًا ، وكان زعيمهم الأكبر في ذلك أرسطو فهو الذى وطد أركان العقل البشرى ، وأشاد به كأساس للبحث في عالم ماوراء الطبيعة وفي عالم الفضيلة أو الخير .

وما كان العقل في يوم من الأيام - عند الحكماء المصريين أو حكماء الهنود - أهلاً لأن يكون مصدر المعرفة في عالم الغيب .

وأخذ العقل -- عقل أرسطو ومن لف لفه - يجادل ويمارى في الحقائق - صغرت أو كبرت ، دقت أو جلّت ، واضحة كانت كوضوح النهار أو خفية كأنها غلفت بقطع من الليل المظلم ، وتجرأت أقلامهم على تناول عالم الغيب وعالم الخير بالإنكار أو الشك أو ترجيح الوجود أو توجب العدم .

وحاول كل زعيم أن يصور الأمر في هذين الميدانين -- ميدان ماوراء الطبيعة وميدان الأخلاق -- بحسب مزاجه وأهوائه ، وبحسب ماتمليه عليه ثقافته وبيئته ، وبحسب ماتمليه عليه طبيعته الجسمانية وجبلته الخلقية .

وانتهى الأمر بأن حاول المشتون الرد فحاول المنكرون تعليل الرفض : وزالت قدسية الموضوع ، وأصبحت أمام جو من اللجاج والمهارة لا يلبق بجلال الله وعظمته (ماقدروا الله حق قدره) .

ولو قيض الله للبيئة اليونانية جوًا من الخير والهدى ، ولو أنعم الله عليهم بنشأة رسول فيهم ، لما كان هذا الانحراف الذى انتشر فيهم ، منذ أرسطو وانتشار الوباء الخبيث والذى تغلغل حتى وصل به الأمر وهو انحراف منحرف - إلى أن أصبح وكأنه الوضع الطبيعى ، فساد في كل بيئة وغزا كل عقل ، وكلما تقدم به الزمن ازداد رسوخًا وثباتًا وازداد انتشارًا حتى لقد غزا الأديان نفسها التى تأبى أن تقره أو تعترف به ، لقد تغلغل في المسيحية فوضع رجال المسيحية مسألة وجود الله وقضية الفضيلة موضع البحث ونزلوا إلى مجال المجادلة والمهارة .

وأخذ هذا الوضع يتخطى القرون حتى جاء الإسلام فوضع الأمر في نصابه ووجه الأذهان إلى أن الأمر الأساسى إنما هو مسألة الوجدانية « أشهد أن لا إله إلا الله » وجه الإسلام الأذهان في

عنف ، وفي قوة إلى التوحيد ، لا إلى إثبات الوجود ، لقد وجه الأذهان إلى أن الله لا يحتاج في ثباته وفي وجوده إلى دليل ، وهو - على العكس - الدليل على غيره فغيره ثابت به ، والعالم ثابت به ، والسموات والأرض والعرش والكرسى . كل ذلك موجود بوجوده ثابت بثباته والوجود بأكمله محتاج في كل لحظة إليه فضلا عن احتياجه إليه في نشأته الأولى ووجوده الأصلي (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) إنه يمسكها في كل آونة وفي كل لحظة فإذا ما تحلى عنها طرفة عين تلاشتا فكانتا هباءً وكانتا عدماً ، وكل ذرة في العالم ، وكل خلية في كائناته إنما ثباتها بالله وقيامها به .

ومثل الإنسان كممثل أى كائن آخر من حيث وجوده وقيامه بالله ، وقد كرمه الله وأعطاه الكثير من المنح والمزايا ، ووهبه هذا التمييز والفهم ، وسخر له الكثير من العوالم الأخرى ، وجعله خليفة في الأرض ، ومن أجل ذلك كانت مسئوليته فيما يتعلق بتصحيح الصلة بينه وبين الله عظيمة خطيرة . أما تصحيح هذه الصلة فإن ذروتها العليا ومثلها الأسمى إنما هو ما أمر به صلوات الله وسلامه عليه في قوله تعالى : (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) .

وفرق هائل بين من يتخذ هذه الآية القرآنية شعاراً ومن يحاول - متجاوزاً قدره - الاستدلال على وجود الله بمخلوق من مخلوقاته . إن الفرق بينها هو الفرق بين طريق الهدى والصواب وطريق الجدل والشك . وجاء الإسلام - كما قلنا - ليضع الأمور في نصابها وليصحح الأوضاع التى انحرفت .

ومن هذه الأوضاع المنحرفة الشرك بالله ، والإنسان يشرك بسبب الضعف على وجه العموم وقد يكون هذا الضعف فقراً ، وقد يكون جهلاً ، وقد يكون طمعاً وجشعاً ، وقد يكون خوفاً وفزعاً وقد يكون غير ذلك ، ومهما يكن من أمر الشرك فإنه أينما وجد ليس إلا مظهرًا من مظاهر الضعف .

وحاول الإسلام أول ما حاول أن يظهر النفوس من هذا الضعف وأن يعيدها بالتوحيد - إلى مجالات العزة والكرامة .

(والله العزة والرسولة للمؤمنين) . فكانت دعوته للتوحيد .

أما ما فى القرآن مما تحمله الناس استدلالاً على وجود الله ، وأعتقد أن القرآن يذكره للاستدلال وجود الله ، فليس إلا بياناً لمظاهر قدرة الله وعنايته بالعالم ، ومن ذلك مثلاً : (وفي الأرض قطع

متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوانٌ وغير صنوانٍ يُسقى بماء واحد ويُفضل بعضها على بعض في الأكل) .

وإن الله سبحانه وتعالى جعل :

(وجعلنا نومكم سباتا ، وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا ، وبيننا فوقكم سبعاً شداداً ، وجعلنا سراجاً وهاجاً . وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً ، لنخرج به حباً ونباتاً ، وجنات ألقافاً) .

(و تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ، الذى خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير . . .) .

وما مثل هذا فى تصور قدرة الله كمثل : (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً . فيذرها قاعاً صفصفاً ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ، يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً ، وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلماً) .

إن فى ذلك وكثير غيره إنما ذكر ليبين عظمة الله وجلاله وقدرته ويبين رحمته بعباده وعنايته

٠ ٣٣

ومامن شك فى أنه يمكن أن يؤخذ من ذلك أدلة كثيرة على وجود الله .

وما من شك فى أن الأدلة التى تؤخذ من ذلك يمكن أن تصاغ فى أسلوب منطقي : فى قياس يشتمل على المقدمات والنتائج ، ويكون متفقاً مع قواعد المنطق الأرسطى ومبادئه ، ولكن ذلك لن يكون أبداً تصويراً لهدف من أهداف القرآن . فالقرآن لم يضع قط وجود الله موضع شك حتى يحتاج إلى الاستدلال عليه .

ومن القصص التى تروى على أنحاء شتى وبأساليب مختلفة تتفق فى الجوهر وتختلف فى الرسم ما يحكى من أن بعض مشاهير العلماء ألف كتاباً ضخماً فى إثبات وجود الله فأقام له أصدقاؤه حفلة تكريم من أجل عمله هذا الضخم ، ومُرَّ بهم بعض الصالحين فأخذوا يتحدثونه عن عبقرية المؤلف فسأل :

ومتى غاب الله حتى يكون في حاجة إلى إثبات ؟ فوجم الجميع ، ولم يستطع المؤلف الإجابة ، وتركهم الرجل الصالح وهو يردد .

(قل الله ثم ذرهم في حوضهم يلعبون) قال رجل للنووي : الصوفي المعروف : ما الدليل على الله ؟ قال : الله - قال الرجل : فما العقل ؟

قال : العقل عاجز ، والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله :

من رام بالعقل مسترشداً سرحه في حيرة يلهو
وشاب بالتليس أسراره يقول في حيرته هل هو

والنتيجة التي نريد أن نصل إليها هي : إن روح القرآن إذاً هي قيادة النفوس إلى التوحيد (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) .

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ، قل إنما يوحي إليّ أنما الوحي إليه واحد فهل أنتم مسلمون) .

وتأتي مشكلة الملاحدة والوجوديين المنكرين لوجود الله ، ماذا نفعل بإزائهم ؟ إن مثل هؤلاء لا وجود لهم في مجتمع سليم طاهر ، ويكفي اعتزالهم كمرض خبيث ينفر الإنسان منه ويكفي عزلم أن يفسدوا الآخرين : تلاميذ كانوا أو طلبة أو عمالاً أو زراعاً ولن تمر فترة طويلة عليهم في هذا الوضع حتى يرتدعوا ويعدلوا عن اتباع أهوائهم وشهواتهم .

وما الوجودية إلا هوى . إنما هوى النفس التي لا تحتمل القيام بالواجب الاجتماعي والديني . والإلحاد ضعف : لأنه محاولة للفرار من التكليف . ومع كل ماتقدم فإنه لا يتأتى لي أن أترك هذا المجال دون أن أذكر قصة سمعتها حديثاً هزنتني من الأعماق ووقعت من نفسي موقعاً من الروعة والجلال لا يمكنني تصوير مداه .

لقد ذكر لي هذه القصة فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ مدثر الحجاز وكيل جامعة أم درمان الإسلامية ورئيس الطريقة التيجانية بالسودان .

في إحدى القرى النائية المنعزلة من قرى السودان كان يعيش رجل عابد صالح وكان يقضى وقته بين المسجد والبيت ، لم يكن يفارق القرية يوماً ما ، والقرية في انعزالها كأنها بالنسبة له ، العالم كله .

وفي يوم من الأيام ولظروف معينة ، غادر هذا الرجل الصالح القرية بصحبة صديق له وجداً في السير حتى وصلا إلى الطريق الذي يؤدي إلى المدينة .

وما إن وصلا إلى الطريق حتى رأيا - بطريق المصادفة - رجلا من رجال الجيش الإنجليزي

بملابسه العسكرية مترف المظهر ، متحلياً بكل ما يمكن أن يتزين به رجل الجيش المترف الأنيق .
ولم يكن الشيخ الصالح قد أتاحت له الظروف رؤية مثل هذا المنظر في قريته أوفى عالمه
المنزول النالى الذى اختصره الشيخ - مع صفه - من قرية إلى بيت ومسجد .
وتأمل الشيخ رجل الجيش الإنجليزي فى دهشة ثم سأل صديقه مشيراً إلى هذا الشيء
الغريب ، ماهذا ؟ فقل له صديقه : هذا كافر .

وعاد الشيخ يسأل فى دهشة أشد وفى استغراب أقوى - أهو كافر بالله ؟
فقال صديقه : نعم . وما إن نطق صديقه بذلك حتى تملك الشيخ شعور بالاشمئزاز منعه من
أن يتلفظ أو ينطق .
وعمره إحساس بالغبثان أخذ يقوى ويزداد بسرعة سريعة وإذا بالشيخ يتقايأ اشمئزاً وغبثاناً
وتقرزاً من هذا الكافر .

هذه هى القصة :

أترى تصويراً أدق للشعور بالنسبة للملحد من هذا الاشمئزاز ؟ أترى صدقاً أصدق من الغثيان
من الكافر ؟ وأى قلم يبلغ فى التعبير ما يبلغ هذا الشيخ وأى أسلوب .
إن جميع الأعراف فى جميع أرجاء الكون تتفق فى الاشمئزاز ممن ينكر الجميل ، وهذا
الاشمئزاز يتفاوت بنسبة قيمة الجميل الذى يسدى ، وبنسبة درجة التكرار التى تقابله ، وينسبه
صفاء النفس التى تعلم ، أوترى هذا النكر .

والإنسان إيجاباً وتصويراً وخلقاً من صنع الله ، وهو بصراً وسمعاً وذوقاً وإحساساً وشعوراً من
صنع الله ، وهو عقلاً وفكراً من صنع الله ، وكل نعمة ظاهرة وباطنة . ونعم الله لاتعد - إنما هى
من صنع الله .

(وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها) (وما بكم من نعمة فمن الله)

إن الإنسان - مادة ومعنى ، حساً وعقلاً ، شعوراً وفكراً - وما بالإنسان من نعم يتقلب فيها
ليلاً ونهاراً صباحاً ومساء - إن كل ذلك من الله .

فإذا ما كفر إنسان بالله فإنه يكون أخص من أن يعاقبه الإنسان بالصفع ، وأحق من أن يبصق
الإنسان فى وجهه . . ولا يستأهل إلا الاشمئزاز إلى درجة التقاؤ . أما الجزاء فى الدين الإسلامى :
يستتاب فإن لم يتب : قُتل مرتدلاً .

• • •

وما لاشك فيه أن من الوسائل الكريمة التى تحول دون انتشار هذه القيادات الفاسدة الملحدة

في المجتمع ما يرجع إلى علماء الدين : فإنهم وقد هيا الله لهم أن يتولوا قيادة المجتمع دينياً لاشك يكون تأثيرهم جارفاً إذا كانوا مثلاً علياً للفضيلة : للفضيلة في أسمى معانيها وأشملها أى إذا كانوا حقاً بالمتزلة التي ترضى الله ورسوله علماً وخلقاً ، وجباً للخير ، وإخلاصاً في كل ما يأتون وما يدعون .

وقد بين الله مقاييس الخير وموازن الفضيلة وبين طريق الشر وسبيل الضلال . وعلماء الدين أعرف بذلك من غيرهم فمسئوليتهم أشد وواجباتهم أصرم وتأثيرهم في المجتمع باديه وحاضره ، لاشك كبير . والله يهدينا جميعاً سواء السبيل .

وأشهد أن لا إله إلا الله :

إن درجات المعرفة لاحصر لها ، وليس في اللغة ما يسد الحاجة في التعبير عن كل درجة منها ولكن في اللغة كلمات تعبر عن مراحل طويلة ، تبتدىء بالمعرفة التي تكون جهلاً لتنتهى بالمعرفة التي هي اليقين الكامل وتبتدىء بالمعرفة السلبية التي تدفع إلى العمل لتنتهى بالمعرفة الإيجابية الفعالة . وفيما يتعلق بمعرفة أن لا إله إلا الله يمكن أن نورد بعض التعبيرات المتدرجة في الرسوخ والثبات تبعاً لتفاوت حالة الأفراد .

فبعض الناس ، يقول : لا إله إلا الله .

وبعضهم « ينطقها » .

وبعضهم « يقتنع » بها .

وفريق « يؤمن » بها .

وقلة « تعتقدها » .

وقليل « يوقن » بها .

ولكن المثل الأعلى في الإسلام أن « نشهد » أن لا إله إلا الله .

« ونشهد » تلك هي « ذروة اليقين » أو على حد التعبير الصوفي « حق اليقين » والوصول إلى مرتبة الشهادة ليس بالأمر الهين ، ولكنه ليس بالمستحيل فإذا ماتاب الإنسان إلى بارئه ، وقتل نفسه ، وأحيا روحه ، وشرب من العين التي يشرب منها عباد الله ، والتي يفجرونها بأنفسهم تفجيراً : بالتوبة الخالصة وبما ذكره القرآن من وسائل هذا التفجير إذ يقول شارحاً هذه الوسائل . (يُوفون بالذر ، ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ، ويطعمون الطعام على حبه مسكياً ويتيمناً وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً ، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قطرياً) .

إذا ما أخلص الإنسان التوبة ، وأتاب إلى الله ولجأ إليه رق قلبه ، وصفت روحه فيحدث له في لحظات أن يغيب عن العالم وعما حوله وعن نفسه ، ويتلاشى كل شيء ويضحك ويصير أثرًا بعد عين أو هباءً منثورًا ، عند ذلك يشهد « أن لا إله إلا الله » ويصير بذلك شهيدًا والشهيد من شهد .

ومن شهد وهو في هذا العالم أعرق في صفة التشهيد ممن شهد أثناء الوفاة أو بعد المات . ومن « شهد » أن لا إله إلا الله فقد رفعه الله إليه ، رفعه إليه وهو معنا في عالم الكون والفساد . وإذا مارفعه إليه بالشهادة صار ربانيًا وامتنع عليه حينئذ أن يشرك بالله فأصبح أحديًا وأصبح من الموحدين .

والتوحيد هو شهادة أن لا إله إلا الله . وهو عقيدة وحالة .

وليس هناك من صعوبة كبيرة في أن يصبح التوحيد عقيدة ، ولكن الصعوبة كل الصعوبة في أن يصبح التوحيد حالة .

إن نبي الشرك من أقوال الإنسان وأفعاله مؤسسًا ذلك على نفيه من قلبه ومن نفسه درجة لا يناها إلا الأقلون ، وهم الذين تحرروا من رق المادة ، ومن عبادة الأوثان .

ورق المادة وعبادة الأوثان هما من السمات العامة التي تسود البشرية في مختلف ظروفها ، يتمثل ذلك في عبادة المال . وعبادة الجاه ، وما من شك في أن الخضوع للشهوات - وهي كثيرة - إنما هو عبادة لها ، والإنسان بطبعه يخلد إلى الأرض ويبيع هواه وتستعبده الأرض ، ويستعبده هواه ويتعد بذلك - وبمقياس درجة استعباده عن الله سبحانه وتعالى .

وكل خضوع لغير الله وكل عبودية لما سوى الله شرك بالله ، إنها تتنافى مع التوحيد ، إنها لا تنسجم مع لا إله إلا الله .

والشرك الحقني كثيرة ألوانه ، وصدق الله العظيم إذ يقول : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)

أما الذين آمنوا ولم يلبسوا بإيمانهم بظلم هؤلاء قلة ، ومن الظلم في الإيمان أو من الإشراك في الإيمان مثلا أن يتصدق الإنسان للمزاةة أو للفرخ أو يصلى ويصوم غير ناظر إلا للناس وما يقولونه عنه .

عن أبي هريرة - فيما رواه الإمام مسلم - سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأُتي به ، ففرغه نعمته فعرفها .

قال : فما عملت فيها ؟

قال : قاتلت فيك حتى استشهدت .

قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال : هو جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأثى فعرفه نعمه فعرفها .

قال : فما عملت فيها ؟

قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن .

قال : كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ ، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار .

ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال . فأثى به فعرفه نعمه فعرفها .

قال : فما عملت فيها ؟

قال : ما تركت من سبيل تحب أن يتفق فيها إلا أنفقت فيها لك .

قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد ، فقد قيل ثم أمر به ، فسحب على وجهه حتى ألقى في النار . (١٣) .

وكل عمل صغر أو عظم لا يراد به وجه الله وإنما يراد به غيره فهو إشراك به سبحانه . والتلبسات الآن كثيرة وقد أتت بسبب الجانب الثقافي اللاديني من المدنية الغربية وقد تسربت إلينا في خفاء غزتنا غزواً لا شعورياً وكان من أثر ترادها أن ألفناها وأصبح ما يخالفها في نظرنا باطلاً ، واتسم ذلك الباطل بسمه الحق وانعكست الآية .

وقد صورت لنا هذه المدنية أن من أسمى الأعمال إنما هي الأعمال التي يأتيها الإنسان إرضاء

لضميره .

يبد أن إرضاء الضمير ليس هدف المؤمن الحقيقي ، فهدفه الوحيد إرضاء الله . وإرضاء

الضمير إذاً كههدف للعمل إنما هو تلبس وانحراف .

أما السبب في أنه تلبس وانحراف فهو أننا إذا أخذنا إرضاء الضمير قائداً وابعاداً هدفاً ضللنا

سواء السبيل : ذلك أن الضمير متغير متقلب متحول مختلف من إنسان لآخر ، ومن بيئة لأخرى ،

ومن ثقافة لأخرى . وهو في الجملة لاستقرار له ولاثبات . فلو عملنا الأعمال إرضاء للضمير

لأسستها على شفا جرف هار .

وقد أنزل الله قواعد للأخلاق ثابتة خالدة على الدهر فهي المقياس ، واتباعها واجب سواء

وافق الضمير ، أو خالفه ، وهذا الاتباع نفسه يجب أن يكون هو الملحوظ فيه إنه طاعة لله

وخضوع له واتباع لأمره . ومن التلبسات أيضاً ما يقال الآن كثيراً من أن هذا العمل أوداك إنما

(١٣) رواه مسلم والنسائي ورواه الترمذى وحسنه وابن حبان في صحيحه وكلاهما بلفظ واحد .

يراد منه المصلحة العامة . والمصلحة العامة هذه بقولها كل إنسان ، ويتمسح فيها بالحق والباطل ، وكل إنسان يقيسها بمقياسه الشخصي . وبمنفعته الذاتية وهي مصلحة عامة إذا اتفقت مع مصالحه ، أما إذا اختلفت فهي باطل وهي فساد في نظره وفي قوله ، وهي على كل حال تتأرجح وتميل نفيًا وإثباتًا مع القائل أو المدعى ومع ميوله وأهوائه .

وإذا أردنا إذاً أن نخرج عن دائرة الذبذبة والميل مع الهوى فعلينا بالتزام المبادئ التي حددها الروحى ، فهي وحدها التي تعرفنا بالمصلحة العامة أو بالصالح العام وهي وحدها التي تقودنا في كل الأحوال إلى الخير والحق ، وهي التي بها تزكية أنفسنا إذا أردنا بها وجه الله .

ومن هذه التلبسات : الاعتداد بالنفس أو الاعتزاز بالنفس ، في مسائل الدين ، وذلك هو ما يمكن أن نعبر عنه الآن بالدين العقلى . ومعنى ذلك في حقيقة الأمر تحكيم العقل في الدين وإخضاع الدين للعقل . وهذه النزعة تسود عند هؤلاء الذين لا يسيطر عليهم الشعور الدينى السليم . وعادة تنتهى هذه النزعة يجعل الدين فلسفة وجعله نظرًا عقليًا أكثر منه خضوعًا وطاعة وإيمانًا ، ويصبح الدين بذلك مجرد معرفة تختلف فيها الأنظار والعقول وتتضارب فيها الآراء والأفكار ، ويصبح الأمر أمرهوى ومزاج وذوق ، ويخضع الإنسان لعقله لا لله ، فيبتعد بذلك قليلا أو كثيرًا عن « لا إله إلا الله » ويدخل في زمرة « رأيت من اتخذ إلهه هواه » .

والوسائل التي عالج بها الإسلام موضوع قيادة الناس ليشهدوا أن لا إله إلا الله كثيرة ، ويمكن أن يقال بصفة عامة : إن الإسلام كله قائم على الشهادتين . ونذكر من هذه الوسائل أن القرآن يشرح في كثير من الآيات أن الله سبحانه .

ضمن الرزق .

وحدد الآجال .

فهو سبحانه يقول في ضمان الرزق .

(وفي السماء رزقكم وما توعدون) .

ويؤيد ذلك بالقسم بنفسه سبحانه وتعالى فيقول بعد ذلك مباشرة .

(فو رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) .

ويقول سبحانه (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) . ويقول لمن كانوا يقتلون أولادهم خوف الفقر . (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم) أما تحديد الآجال فيقول الله فيه . (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون) (لكل أجل كتاب) ويقول الله تعالى للذين آمنوا : (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في

الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ماماتوا وماقتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم . والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير) وإذا كان الله سبحانه ضمن الرزق وطلب أن نسعى إليه . (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) .

فكل جشع وقلق وحيرة واضطراب ولجوء إلى غير الله في الرزق إشراك بالله ، وإذا كان الله قد حدد الآجال فإن الجبن والفرار إشراك بالله .

والمؤمن إذا مطمئن إلى رزقه ساع إليه ، وهو يعلم أن الآجال بيد الله فليس إذا بجان ، وإذا ما اطمأن إلى رزقه ، واطمأن إلى أن كائناً من كان لا ينقص من أجله زالت العقبات في طريق وصوله إلى التوحيد عقيدة وحالا .

وإذا ما كان موحدًا عقيدة وحالا فقد شهد أن لا إله إلا الله وكان بذلك محاولا الاقتداء برسول الله ﷺ الذي قال له رب العزة جل وعلا . (قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ)

أشهد أن محمداً رسول الله :

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ولا مفر من هذه الشهادة ، بل إنه لا تقبل - في الأوضاع المستقيمة .

شهادة أن لا إله إلا الله « دون شهادة » وأن محمداً رسول الله ، وهما إقرار متكامل بالإيمان إقرار لا يتجزأ .^(١٤) . كيف نشهد أن محمداً رسول الله ؟

يقول الإمام الغزالي : « فإن وقع لك الشك في شخص معين أنه نبي أم لا فلا يحصل لك اليقين إلا بمعرفة أحواله ، إما بالمشاهدة أو بالتواتر والتسامع ، فإنك إذا عرفت الطب ، والفقه ، يمكنك أن تعرف الفقهاء والأطباء بمعرفة أحوالهم وسماع أقوالهم وإن لم تشاهدهم ، ولا تعجز أيضاً عن معرفة كون الشافعي رحمه الله فقيهاً وكون جالينوس طبيباً ، معرفة بالحقيقة ، لا بالتقليد عن الغير ، بل إن تعلم شيئاً من الفقه والطب وتطالع كتبها وتصانيفها ، فيحصل لك علم ضروري بحالتها فكذلك إذا فهمت معنى النبوة ونريد الآن أن نشرف بمرافقة الرسول صلوات الله وسلامه عليه لنشهد بعض سناء النبوة ولألائها فيه صلوات الله عليه .

(١٤) لقد سرنا ، فيما يتعلق بوجود الله . على أن الأمر لا يحتاج إلى إثبات ، أما فيما يتعلق بإثبات صدق الرسول ﷺ ، فإن الأمر على العكس : ذلك أن القرآن وجهنا إلى ظروف وملابسات وإلى أدلة وبراهين : ثبت صدقه ﷺ ، فإذا حاولنا هنا الاستفاضة في إثبات صدقه ﷺ فإنما نتبع في ذلك التوجيه القرآني الكريم .

إنه سليل أجداد : يحدتنا التاريخ عن شرفهم وعراقة أصلهم وعن المكرمات التي كانوا يقومون بها من أجل الإنسانية ومن أجل الخير .

فقصى - أحد أجداده ﷺ - ابني دار الندوة وجعل بابها إلى البيت ، وكانت دار الندوة هذه هي مجلس الشورى وهي البرلمان ، وهي المجلس التنفيذي بل إنها كانت أوسع من ذلك كله ، ففيها كان أمر قريش كله وما أرادوا : من نكاح أو حرب ، أو مشورة فيما ينوبهم . ولا يعقدون لواء حرب لهم ولا لقوم غيرهم إلا في دار الندوة يعقده لهم قصى : ولا تخرج غير قريش فيرحلون إلا منها ، لا يقدمون إلا نزلوا فيها تشریفاً له (لقصى) وتيمناً برأيه ومعرفة بفضلته ، ويتبعون أمره كالدين المتبع لا يعمل بغيره في حياته وبعد موته . وقصى هذا من أجداد الرسول ﷺ وتابعه ابنه عبد مناف ، فاضل هو الآخر في الدورة والسنام شرقاً في قومه .

وكذلك كان أمر بن عبد مناف : الذي أنقذ أهل مكة من الموت جوعاً في السنين الجلبد التي أصابتهم والتي ذهبت بأموالهم .

أما عبد المطلب الجد المباشر للرسول ﷺ فقد كان من حكماء العرب وكان من حكماء قريش ، « وتؤثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها : كالمنع من نكاح المحارم ، وقطع يد السارق والنهي عن قتل المؤودة ، وإذا نظرنا إلى رسول الله ﷺ من ناحية والده أو من ناحية والدته فإنها خلقاً وعراقة أصل : من أشرف بيوت مكة وأكرمها وأسمائها بشهادة المؤرخين عن بكرة أبيهم .

فكان الرسول ﷺ - كما يقول ابن هشام - « أوسط قومه نسباً ، وأعظمهم شرقاً من قبل أبيه وأمه .

ولد - صلوات الله عليه - فأرخ ميلاده ، ابتداء التمهيد لما أرادته الحكمة الإلهية من إخراج البشرية من الظلمات إلى النور .

كان ميلاده تمهيداً لذلك بمعنى : أن الله سبحانه وتعالى في هذه الفترة التي سبقت الرسالة أحاط رسول الإسلام برعايته وعنايته ليكون أهلاً لأن يحمل أعظم رسالة ، ولأن يبشر بالدين العام ، ولأن يبين للإنسانية جمعاء عن المعنى الصحيح . فيما يتعلق بأمر الصلة بينها وبين الله وفيما يتعلق بأمر سلوك كل شخص بالنسبة لنفسه .

وبالنسبة للآخرين ، وليحدد مسئولية كل شخص في المجتمع حاكماً كان أو محكوماً وزوجاً

كان أو أبًا ، أو أبًا أو أخًا أو رئيسًا في العمل أو عاملاً . . إلى غير ذلك مما يشتمل على بعضه الحديث الشريف .

وكلكم راع ومسئول عن رعيته ، فالإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل في بيته راع ومسئول عن رعيته .

والمرأة في بيت زوجها راعية ومسئولة عن رعيته ، والخدام في مال سيده راع ومسئول عن رعيته ، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته .

ومنذ ميلاده صلوات الله وسلامه عليه ، بدأت تتزلزل جميع أسس الضلال والانحراف وترمز إلى ذلك السيرة النبوية برموز جميلة فتحدثنا .

أنه في ليلة ميلاده ، غاضت بحيرة ساوى ، وتصعد إيوان كسرى ، وخبث نار الفرس أما الأصنام التي كانت على ظهر الكعبة فإن مصيرها المحتوم وتحطيمها المؤكد قد تحدد موعده بالسنتين والأيام .

إن عمد الشرك والضلال ، والانحراف ، والظلم ، والاستعباد بدأت تنهار وتنهار منذ ميلاد الرسول ﷺ ، وأصبح أمر النور والهداية ، والرشاد وشيك الظهور والانتشار ، وسمى المولود ، محمدًا ، أما سبب هذه التسمية فهو من جانب أن أمته أنها - فيما يروى - آت حين حملت به ، فقال لها :

إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فقولى .

أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد ، ثم سميه « محمدًا » ومن جانب آخر : فهو حينما جاء جده عبد المطلب ليراه قيل له . ما سميت ابنك ؟ فقال محمدًا فقيل له :

وكيف سميت باسم ، ليس لأحد من آبائك ، وقومك .

فقال : إني لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم وذلك حسبما يروى لرؤيا كان قد رآها عبد المطلب ، وقد ذكر حديثها على القيرواني في كتاب : كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره ، لها طرف في السماء وطرف في الأرض ، وطرف في المشرق ، وطرف في المغرب ثم عادت كأنها شجرة وعلى ورقة منها نور ، وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها .

فقصها ففسرت له بمولود يكون من صلبه ، يتبعه أهل المشرق والمغرب ، ومحمده أهل السماء والأرض فلذلك سماه : محمدًا .

وأخذت حليلة السعدية رسول المستقبل إلى بادية بنى سعد ، وليس هناك من غرابة في أن يكون رسول النور هذا قد ملأ رحلتها من مكة إلى البادية بالبهجة والنشاط والأمل والتفاؤل . وإن

الأبحاث الحديثة نفسها ، وتجارب الإنسانية منذ أن وجدت الإنسانية تؤيد أن هناك إشعاعات عند بعض الناس تضيئ على المرافقين لهم بهجة ونشاطاً ، فلا غرابة إذن أن تنشط حليلة وينشط زوجها ، وتنشط دوايها ، وأن تسير الرحلة رخاء ، وأن يكون محمد في براءته وطهارته ، وفي طفولته الباسمة ونضارته المتألقة هو سبب ذلك كله .

وبملا محمد ﷺ بيت حليلة بهجة وسروراً ، ويدب النشاط في جميع أرجاء البيت وسكانه ويبارك الله في كل شيء فيه ، وتنعم هذه الأسرة بحياة هنيئة فيزيد عطفها على محمد ﷺ ، ويزيد حنانها عليه ، فينمو في جو من الرحمة والود والحنان وينغرس كل ذلك في نفسه ، ويمتلئ قلبه الناشئ ببذور أسمى العواطف والشيم ،

وفي عامه الرابع ﷺ في هذه السن التي يبتدئ الإنسان فيها بنوع من التمييز يمكن أن يؤدي به إلى بعض الأعمال التي قد تخرجه من براءة الطفولة المطلقة وطهارتها الناصعة ، في هذه السن ، حصته رعاية الله بما تعبر عنه السيرة النبوية : بشق الصدر ، وهذا الرمز هو كما يرويه الإمام مسلم : صاحب الصحيح قال : عن أنس رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ ، أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه وصرعه ، فشق عن قلبه فاستخرجه ، فاستخرج منه علقة فقال : هذا حظ الشيطان ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه . وجاء الغلمان يسعون إلى أمه : يعني مرضعته إن محمداً قد قتل . فاستقبلوه وهو ممتقع اللون . لقد استخرج جبريل حظ الشيطان من قلبه في هذه السن المبكرة فكان كما تقول السيدة آمنة : والله ما للشيطان عليه من سبيل .

وحقيقة إنه صلوات الله وسلامه لم يكن للشيطان عليه من سبيل ، فقد عصمه الله عصمة تامة عن الرجس حياته كلها .

لقد كانت مكة - حينما كان رسول الله ﷺ شاباً فتياً قوياً تعج بمختلف الملاذ الشهوانية الدنسة .

لقد كانت بيوت الخمر متشرة فيها ، وكذلك البيوت المريبة ، وفي هذه وتلك المغنيات والراقصات الماجنات ، وكان الشباب يتهالك على كل ذلك ويتهافت عليه وأراد الله أن يكون رسوله بمنأى عن كل ذلك .

ذكر البخارى رضي الله عنه ، أنه صلوات الله عليه وسلامه قال : ما هممت بشيء من أمر الجاهلية إلا مرتين . إحدى المرتين : أنه ﷺ : كان في غم يرعاها هو وغلाम من قريش . فقال لصاحبه .

« اكفنى أمر الغنم حتى آتى مكة ، وكان بها عرس فيها هو وزمر ، فلما دنا من الدار . ليحضر ذلك ألقى عليه النوم ، فنام حتى ضربته الشمس عصمة من الله له .

وفي المرة الأخيرة قال لصاحبه مثل ذلك ، وألقى عليه النوم فيها ، كما ألقى في المرة الأولى وهذا الخبر الذى يفيدنا عصمة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه عن شرور الجاهلية ومفاسدها : يعرفنا بأمر آخر ، وهو رعاية محمد ﷺ للغنم قبل بعثته .

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه يرعاها في بادية بنى سعد . وقد كان يرعاها في مكة وقد أخبر صلوات الله وسلامه عليه أن موسى عليه السلام بعث وهو راعي غنم ، وبعثت وأنا راعي غنم أهلئ بأجساد ، إنما جعل الله هذا في الأنبياء كما يقول صاحب الروض الأنف ، تقدمه لهم ليكونوا رعاة الخلق ، ولتكون أهمهم رعاية لهم .

ومضت فترة الشباب برسول الله ﷺ وهو طاهر زكى صلوات الله وسلامه عليه .

وأشهد أن محمداً رسول الله .

وصفه قومه بالأمين ، لما رأوه ولاحظوه وحققوه وأيقنوا به : من صفات تتمثل فيها الأمانة واضحة وضاعة .

لقد كان أميناً على نفسه ، فلم يسلمها إلى مهاوى الشرك أو الشهوة أو الرجس . وكان أميناً على الناس فلم ينتهك عرضاً ولم يوقع بعض القوم في بعض بالهينة ولم يغترب . وكان أميناً على الأموال التى تودع عنده ليتاجر بها ، وليحفظها ، فلم يبخس ولم يسرق . وكان أميناً على الحديث إذا تحدث : فلا كذب ، ولا مغالاة .

وكان أميناً على الأسرار : فلم يفشها ، ولم يدعها إنه الأمين . . . أجمع عليها القرشيون وقالوها حينما اختلفوا في رفع الحجر الأسود واستلوا السيوف ، وأوشكت الحرب أن تقع بينهم ، ثم استقر رأيهم على الاحتكام لأول آت ، فغمرتهم الفرحة حينما رأوا محمداً وصاحوا : « إنه الأمين » .

والأمين : تعنى الصادق المخلص ، فالصدق والإخلاص : عنصران تتكون منهما الأمانة وكانت هذه الأمانة معروفة عنه ، صلوات الله عليه وسلامه ، في شبابه وفي حياته كلها وهو القائل فيها بعد : لا أمان لمن لا أمانة له .

وعند بدءه (دعوته جهراً) حينما نزل قوله تعالى (وأنذر عشيرتک الأقربين) صعد رسول الله ﷺ على الصفا فقال :

يامعشر قريش : فقالت قريش : محمد على الصفا يهتف : فأقبلوا واجتمعوا فقالوا مالك يا محمد؟ قال : رأيتمكم لو أخبرتمكم ، أن خيلا بسفح الجبل ، أكنتم تصدقونني؟ قالوا : نعم ، أنت عندنا غير متهم ، وماجرينا عليك كذبًا قط .

قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، يا بني عبد المطلب ، يا بني عبد مناف ، يا بني زهرة . . . حتى عدد الأفخاذ من قريش - إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين وأني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبًا إلا أن تقولوا « لا إله إلا الله » .

وإذا كان رسول الله صلوات وسلامه عليه قد طرح الثقة بنفسه على قريش برفعه علم الأمانة هذا في وجوههم ، فإنه كان مطمئنًا واثقًا من حياته هي من الصفاء بحيث لم يشبها ما يجعل رأى قريش قبيحًا .

لقد كانت حياته : البراءة الكاملة ، والطهر التام . وهذا مادعاها إلى أن يتحدى في صراحة ، وأن يعلن في وضوح أن حياته تثبت صدق مايقول :

ولو تمثلت الأمانة - الصدق والإخلاص - في كل من يحيطون به من المكين لما كان في حاجة إلى رفع علمه هذا ، فقد كان يكفي الإخبار ، بأنه رسول فتكون الاستجابة .

ولقد آمن بمجرد هذا الإخبار كثيرون : لما توفر فيهم من الصدق والإخلاص لأنفسهم وللآخرين : أي لما توفر فيهم من الأمانة . لقد آمنت خديجة ، وآمن أبو بكر وآمن ورقة ، وغيرهم ، بمجرد أن أخبرهم بأمره ، آمنوا لما يعرفون فيه ، ولما يعلمونه من حياته .

ولقد أقر بهذه الصفة : - صفة الأمانة - أبو سفيان في وقت كان فيه من أشد أعداء الرسول ﷺ ، سأله هرقل قائلاً . هل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال : فقال أبو سفيان : لا . وكان استنتاج هرقل . أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على التامس ويكذب على الله .

سأل هرقل أبا سفيان أيضًا عما إذا كان قد أثر عن محمد غدر؟ فأجاب أبو سفيان بالنفي . فقال له هرقل : سألتك : هل يغدر ، فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لاتغدر .

وحديث هرقل هذا مع أبي سفيان الذي رواه البخاري وروته كتب الحديث ، وكتب السيرة : جدير بالتأمل . فهو استنتاج عاقل ، ومنطق مروى ، وتأخذ منه الآن ما يتصل بحياة الرسول ﷺ ، وندع ما يتصل بالرسالة لما بعد : يقول هرقل لأبي سفيان .

سألتك عن نسبه ، فذكرت : أنه فيكم ذو نسب فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها . وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت : أن لا .

فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله ، لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله .

وسألتك : هل كان من آباه من ملك ؟ فذكرت : أن لا .

قلت : فلو كان من آباه من ملك ، لقلت : رجل يطلب ملك أبيه . . ا . ه
وإذا نظرنا إلى حياة الرسول ﷺ من ناحية الوراثة أو من الناحية النفسية . . فإننا نجد : أنها
تحقق صدقه .

لقد كانت حياته - صلوات الله وسلامه عليه - شرحاً مستفيضاً ، وتوضيحاً كاملاً وتعبيراً تاماً
لما ذكره ابن خلدون ، وما يتفق عليه العقلاء ويجمع عليه أصحاب البصائر المستنيرة : من أن
علامات الأنبياء .

« أنه يوجد لهم قبل الوحي : خلق الخير والزكاء ، وبجانبه المذمومات والرجس أجمع وهذا هو
معنى العصمة وكأنه مقطوع على التره عن المذمومات المنفرة لها ، كأنها منفرة لجبلته .
ويضرب ابن خلدون بعض الأمثلة من حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه مبيته لهذه
القاعدة فيقول :

« وفي الصحيح أنه حمل الحجارة وهو غلام ، مع عمه العباس لبناء الكعبة فجعلها في
إزاره ، فأنكشف ، فسقط مغشياً عليه حتى استر بإزاره .

ودُعي إلى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب ، فأصابه غشى النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر
شيئاً من شأنهم .

بل لقد نزهه الله عن ذلك كله ، حتى أنه يجبلته يتره عن المطعومات المستكرهه ، فقد كان
ﷺ ، لا يقرب البصل والثوم ، فقيل له في ذلك ، فقال :
« إنني أتأجى من لاتأجون » ا . ه .

ومن الملاحظات الدقيقة : التي وجه ابن خلدون الأذهان إليها مشيراً بها إلى أن الملاحظات
والظروف والجو الذي عاش فيه الرسول ﷺ وحياته قبل البعثة وبعدها إنما كان كل ذلك خيراً
وفضيلة ، سواء من ناحية سلوكه الشخصي ، أو من ناحية صلته بملك أو وحى يقول
ابن خلدون :

وانظر لما أخبر النبي ﷺ ، خديجة رضي الله عنها بحال الوحي أول ما فاجأته وأرادت اختباره
فقالت : « اجعلنى بينك وبين ثوبك ، فلما فعل ذلك ذهب عنه »
فقالت : « إنه ملك وليس بشيطان » .

ومعناه أنه لا يقرب النساء ، وكذلك سأله عن أحب الثياب إليه ، أن يأتيه فيها .
فقال : البيضاء والخضرة .

فقلت : إنه ملك .

يعنى : إن البياض والخضرة من ألوان الخير والملائكة ، والسواد ألوان الشر والشياطين وأمثال ذلك « اهـ .

هذا النهج الذى نهجناه فى هذا البحث ، والذى اتجه إليه ابن خلدون ، واتجه إليه من قبله هرقل ، هو نهج الفطرة ، ونهج العقل وهو النهج القرآنى : إنه نهج الفطرة ، ولذلك قالت السيدة خديجة رضى الله عنها ، على البداة للرسول - حينما فاجأها بنجر الوحى وقال لها : « لقد خشيت على نفسى » قالت له :

« كلا . . . والله لا ينجزيك الله أبداً : إنك لتصل الرحم وتحمل الكل ، وتكسب المعدم وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

ونحن إذن حينما نهج هذا النهج . فإنما نتأسى بالقرآن الذى بين أن حياته صلوات الله وسلامه عليه ، تقف دليلاً واضحاً على أنه : صادق فى كل مايقول : فهو على خلق عظيم . (وإنك لعلى خلق عظيم) .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه . « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

وهذا الجانب الخلقى فيه : يعرفه قومه ، ومواطنوه . حق المعرفة ، فقد كانوا يعرفون محمداً ، كما يعرفون أبناءهم وإخوتهم ، لانتخفى عليهم من سلوكه خفية .

(الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) ويوجه القرآن تفكيرنا : إلى أنه صلوات الله وسلامه عليه ، كان أمياً فما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه : إذن لارتاب المبطلون .

(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا يخطه يمينك إذا لارتاب المبطلون) .

ثم إن مما يلفت النظر فى قوة : أنه مكث فيهم أربعين سنة ، لا يتحدث عن رسالة ولا نبوة ومضى عهد الشباب الطموح لم يعلن فيه شيئاً ، ولم يتحدث فيه بزعامة ولا ملك ولا نبوة ، فلما اكتمل نضجاً ، وعقلاً ، تحدث عن اجتهاء الله له واختباره لأداء الرسالة .

(قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولأدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون) ويتحدى القرآن المنكرين فى صدقهم ، وإخلاصهم وإن شئت فقل : فى أمانتهم فيعرض عليهم أمراً واحداً سهلاً لا يشق عليهم تفيذه .

(قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تفكروا ما بصاحبكم من جنة

إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد)

ويزيد القرآن على ذلك كله : التحدى بالقرآن الكريم .
(وأشهد أن محمدًا رسول الله)

وما من شك في أن كل شخص مخلص ، يستمع إلى الدعوة الإسلامية : يفر مع النجاشي :
إن الذى جاء به محمد ﷺ ، والذى جاء به عيسى عليه السلام : يخرج من مشكاة واحدة .
لقد كان النجاشي يؤمن بعيسى عليه السلام إيمانًا لا يخالجه فيه شك ، فلما سمع وصفًا لموضوع
الدعوة الإسلامية آمن بمحمد عليه الصلاة والسلام ، إيمانًا كإيمانه بعيسى عليه السلام فى صدقه ،
وفى أنه يستمد دعوته من الله .

لقد قالها النجاشي حينما سمع جعفر بن أبى طالب يقص أمر الجاهلية وأمر الإسلام ، وقد عاش
جعفر بن أبى طالب حياة الجاهلية ، وعاش حياة الإسلام وكل الأخبار والوثائق : تؤيده فيما
يتعلق بالجاهلية .

والقرآن الكريم والأحاديث الشريفة تؤيده فيما يتعلق بالإسلام يقول جعفر :
« أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية : نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأفى الفواحش ، ونقطع
الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف .

فكنا على ذلك حتى بعث الله رسولنا منا : نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله :
لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه : من الحجارة والأوثان .
وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة وصللة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم
والدماء .

وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، وعدد عليه أمور الإسلام .
فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئًا
وحرمنا ما حرم الله علينا ، وأحللنا ما أحل لنا .
فلما سمع النجاشي ذلك . وقر فى قلبه يقين لا يتزعزع بصدق محمد . فقال كلمته المشهورة
السابقة .

أما هرقل فيما رواه البخارى ، فإنه حينما سأل أبا سفيان عن الدعوة الإسلامية ، ذكر له
أبوسفيان أن محمدًا ، يأمر الناس :

« أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئًا وينهاهم عن عبادة الأوثان ، ويأمرهم بالصلاة ،
والصدق ، والعفاف ، وصللة الرحم ، فقال هرقل :
إن كان ماتقول حقًا فسيملك ماتحت قدمى هاتين وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظن

أنه منكم ، فلو أني أعلم أنني أخلص إليه ، لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه ، هذا النهج : من الاستدلال بالدعوة على الصدق وجعل النظر في الدعوة إحدى الوسائل التي تسلم مع غيرها من الملابسات إلى اليقين بصدق الداعي .

هذا المنهج الذي اتخذه هرقل والنجاشي هو المنهج الذي أقره الإمام الغزالي ، فإنك إذا : « أكرزت النظر في القرآن والأخبار ، يحصل لك العلم الضروري بكونه ، ﷺ ، على أعلى درجات النبوة .

وأعضد ذلك بتجربة ماقاله في العبادات وتأثيرها في تصفية القلوب ، وكيف صدق في قوله : « من عمل بما علم ورثه علم ما لم يعلم » وكيف صدق في قوله : « من أعان ظالمًا ، سلطه الله عليه » . وكيف صدق في قوله .

« من أصبح وهوومه هم واحد - هو التقوى - كفاه الله هموم الدنيا والآخرة فإذا جرت ذلك في ألف وألفين وآلاف حصل لك علم ضروري لانتقاري فيه بنبوته عليه الصلاة والسلام . إن النظر إلى الدعوة الإسلامية في نظر الإمام الغزالي هو إحدى الوسائل التي تثبت صدق الرسول ﷺ . وقد تابع هذا الاتجاه في الاستدلال : العالم الاجتماعي الكبير ابن خلدون وهو يستوعب في نظرة عامة - الكثير من الاتجاهات المستقيمة في شأن النبوات .

ونقل هنا ماكتبه خاصًا بموضوع الاستدلال بالدعوة ، حينما تكون الدعوة خيرًا محضًا كالدعوة الإسلامية على صدق الرسول فيما يدعيه يقول : ومن علاماتهم أيضًا .

دعائهم إلى الدين والعبادة : من الصلاة والصدقة والعفاف ، وقد استدلت خديجة على صدقه ﷺ ، بذلك ، وكذلك أبو بكر ، ولم يحتاجا في أمره إلى دليل خارج عن حاله وخلقه ، وفي الصحيح أن هرقل حين جاءه : كتاب النبي ﷺ يدعو إلى الإسلام ، أحضر من وجد في بلده من قريش ، وفيهم « أبوسفيان » ، يسألهم عن حاله ، فكان فيما سأل أن قال : « بم يأمركم » .

وقال أبوسفيان : « بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف . . إلى آخر ما سأل فأجابته فقال : إن يكن ماتقولهُ حقًا فهو نبي وسيملك ماتحت قدمي هاتين .

والعفاف الذي أشار إليه هرقل : هو العصمة فانظر كيف أخذ من العصمة والدعاء إلى الدين والعبادة دليلًا على صحة نبوته ﷺ ، ولم يحتاج إلى معجزة ، فدل ذلك على أن ذلك من علامات النبوة . اهـ .

والواقع أننا إذا نظرنا إلى موضوع الرسالة الإسلامية فإننا نجد في صورة دقيقة الهدف الذي

حدده الله من إنزالها ، وهو الرحمة العامة ، يقول تعالى لرسوله الكريم : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

والرحمة إذن هي الطابع العام ، لكل التعاليم الإسلامية سواء في ذلك ما يختص بالمجتمع أو ما يختص بالفرد ، وسواء في ذلك ما يتصل بالجانب العقدي أو الجانب الأخلاقي ، أو الجانب التشريعي . وهذه الرحمة تظهر في مختلف ميادين النشاط الإنساني بصورة متعددة ، فتظهر في المجتمع بمظهر العدالة والأخوة ، وقد ربط الإسلام المجتمع بعبءه ببعض برباط كرباط البناء المحكم « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .

ويتأسك كتأسك الجسد الحى الذى يسعد جميعه أو يشقى جميعه ، بسعادة أعضائه أو بشقاها « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد : إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

وهذا الأحكام ، وهذا الترابط : إنما كان بسبب العدالة السارية التى تكبح شهوات الجموح ، وترد من غرب الطامع ، وتفىء بالمسرفين إلى سبيل الاعتدال . والأخوة بجوار العدالة عامل ثان من عوامل الترابط والتماسك .

والمؤمنون : لوحدة أهدافهم ، ولوحدة آمالهم : هم إخوة متعاونون . (إنما المؤمنون إخوة) . وتظهر الرحمة فى الفرد - فى أسمى معانيها - فى صورة التجرد لله سبحانه وتعالى : (ألا لله الدين الخالص) .

وهذا الدين الخالص : إنما هو العبودية الكاملة لله وحده ، وإذا ما وجدت هذه العبودية ، وجد الإيثار والتضحية ، والبذل والفداء ، ووجد كل خلق كريم ، وكان البعد عن كل خلق ذميم وأصبح الإنسان الذى يتمثل فيه ذلك رحمة ، أينما حل وحيثما أقام ولكنه هو نفسه : يصبح أيضاً ، بعبوديته هذه فى كنف الله تعالى وفى رعايته ، وكان آمناً على نفسه ، وعلى ذويه ، سعيداً بعناية الله تعالى به وتوفيقه له ، فهو إذن مغمور برحمة الله .

والمثل الأعلى الذى تمثلت فيه الرسالة الإسلامية خير تمثيل ، إنما هو : رسول الله ﷺ ، لقد كان خلقه القرآن كما جاء على لسان عائشة أم المؤمنين ، رضى الله عنها ، لقد خالط القرآن فى روحه وبدنه ، وامتزج ، صلوات الله وسلامه عليه ، بالرسالة الإسلامية وامتزجت به فكانت هى الرحمة المرسلة ، وكان هو الرحمة المهداة .

وإذا نظرنا إذن إلى الرسالة الإسلامية ، فإننا نشهد أن محمداً رسول الله صلوات الله ورحمته ونحياته وسلامه عليه .

صور إيمانية

ومن صور الإيمان السامية التي نتطلع إليها كنبراس مضيء ، وكمثل أعلى ننظر إليه في احترام وقداسة ، ونحاول أن نتخذ منه أسوة وقدوة : الصور الآتية .

تروى كعب السيرة النبوية ، وكعب الأحاديث الشريفة : أن رجلاً من أشرف قريش مشوا إلى أبي طالب ، فقالوا له : يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلةً فينا ، وإنا قد استهينناك من ابن أخيك فلم تنه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا : من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آهتنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين .

ثم انصرفوا عنه في عزم مصمم ، وفي إرادة مريدة ، فعظم على أبي طالب من جانب فراق قومه وعداوتهم له ، ولكنه من جانب آخر لم يطب نفساً بإسلام رسول الله لهم ولا خذلانه ، ووقع في حيرة مريرة ، واستغرق في تفكير عميق ثم بعث إلى رسول الله ﷺ وقص عليه نبأ قومه ثم قال له :

يا ابن أخي : ابق علىّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق .

فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه رأى جديد ، وأنه خاذله ومسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته ، والقيام معه ، وفي لحظة فكرية عميقة مستغرقة تكشف لرسول الله ﷺ المستقبل بدون نصرة عمه ، فإذا به يزداد ثقة بالله ، وإيماناً بنصره وإذا به يقول :

« والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » .

ثم قام واثقاً بالله تعالى ثقة لا ترزعزعا الأعاصير ، ثقة تميد دونها الجبال ، ولا يميده فلما ولي ناداه أبو طالب فقال : أقبل يا ابن أخي ، فأقبل رسول الله ﷺ فقال له : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً .

وإن الشجاعة الأدبية المؤمنة لا تتمثل حقيقة إلا إذا كانت هناك معارضة قوية ، وكلما زادت المعارضة ، وكلما قويت حتى تصبح تهديداً منذراً ووعيداً مهدداً كانت الشجاعة الأدبية عند المؤمن بالحق ، والمؤمن بالصواب مثلاً أعلى ، ورجولة كاملة ، وهذه الحادثة التي رويناها ، لا تتمثل ظاهرة عابرة في حياة الرسول ، صلوات الله عليه ، وإنما تتمثل شعاراً دائماً .

قال عتبة بن ربيعة يوماً ، وهو جالس في نادى قريش ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده « يا معشر قريش » ألا أقوم إلى محمد فأكلمه ، وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ؟

وذلك : حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ ، يزيدون ويكثرون فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، قم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا ابن أخي ، إنك منا حيث قد علمت : من البسطة في العشرة والكمال في النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آهتهم وكفرت من مضى من آباتهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً .. تنظر فيها لعلك تقبل مني بعضها . فقال رسول الله ﷺ : « قل يا أبا الوليد أسمع . »

قال : يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبدلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .

حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله ﷺ يستمع منه قال : لقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال : فاسمع مني ، قال : افعل .

قال : « بسم الله الرحمن الرحيم (حم) ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فضلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا : قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ..)

ثم مضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه .

ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة ثم قال : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذلك » .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به .

فلما جلس إليهم : قالوا « ما وراءك يا أبا الوليد » قال « ورأى أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة » .

يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي ، وخلّوا بين هذا الرجل ، وبين ما هو فيه فاعتزلوه .
فوالله ليكون لقوله الذي سمعت منه نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على
العرب فملكه ملككم وعزه عزمكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : « هذا رأى فيه فاصنعوا ما بدلكم »
قد يقول قائل : إنه لو عرض على محمد ﷺ هذا العرض من هيئة تستطيع تنفيذه لقبل .
هذا القول ينقضه : إن عتبة كان مفوضاً من زعماء قريش وينقضه أيضاً الخبر الآخر الذي ترويه
كتب السيرة .

لقد اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث أخو
بني عبد الدار ، وأبو البختري بن هشام ، والأسود بن المطلب بن الأسد ، وزمعة بن الأسود ،
والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام ، عليه لعنة الله ، وعبد الله بن أبي أمية والعاص
ابن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان ، وأمّية بن خلف ، اجتمعوا بعد غروب الشمس
عند ظهر الكعبة ثم قال بعضهم لبعض .

« ابعثوا إلى محمد فكلموه ، وخاصموه حتى تعذروا فيه . »

فبعثوا إليه أن أشرف قومك قد اجتمعوا ليكلموك فأتهم .

فجاءهم رسول الله ﷺ سريعا وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه « وكان عليهم حرباً

يجب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم حتى جلس إليهم فقالوا له »

« يا محمد إنا قد بعثنا إليك لتكلمك ، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل

ما أدخلت على قومك : لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة وسفهت الأحلام ،

وفرقت الجماعة ، فما بقى أمر قبيح إلا جثته فيما بيننا وبينك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث

تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا

فنحن نسؤدك علينا ، وإن كنت إنما تريد به ملكاً ، ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك

رثياً ، تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن رثياً ، فرمما كان ذلك - بذلنا لك

أموالنا في طلب الطب لك حتى نرتك منه أو نعذر فيك » فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما بي

ما تقولون ، ما جئت بما جئتمكم أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله

بعثنى إليكم رسولا وأنزل علي كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربي

ونصحت لكم ، فإن تقبلوا ما جئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه عليّ ، أصبر

لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم .

وصورة من صور الإيمان حققها الصحابة ، رضوان الله عليهم ، وكم حقق الصحابة من صور إيمانية .

لقد خرج الرسول ﷺ ، مع الجيش ليعترض طريق قافلة قريش رداً على ما أخذوه من أموال المسلمين ظلماً واغتصاباً فأثاه الخبر عن قريش بمسيرتهم ليمنعوا قافلتهم ، فاستشار الناس ، وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ، ثم قام عمر بن الخطاب فقال : وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ، اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى الغناد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له . ولم يكن الرسول ﷺ قد سمع قول الأنصار ، ولم يكن أحد منهم قد تكلم فقال ﷺ : أشيروا علي أيها الناس .

وإنما يريد الأنصار ، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله إنا برآء من زمامك حتى تصل إلى دورنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما تمنع منه آباءنا ونساءنا ، فكان رسول الله ﷺ ، يخاف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرة إلا بمن دمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو خارج بلادهم ، فلما قال رسول الله ﷺ ، قام سعد بن معاذ وتذكر كلمته بأكملها ، لأنها من الدساتير الرائجة الواجبة التحقيق في الصلة بين الجيش المخلص وقائده المؤمن .

قال سعد : والله أكأنك تريد يا رسول الله ، قال أجل ، قال : فقد آمنت بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدونا ، وموثقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء . لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله .

فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ، ونشطه ذلك ، ثم قال سيروا وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم .
وكان السير على بركة الله ، وكان النصر بتوفيق الله .

ومن الصور الإيمانية التي قصها القرآن الكريم غير مرة ، ووضعها ، وضاعة متألثة ، أمام أنظار المسلمين فكانت عبرة ، وكانت حافزاً : قصة السحرة الذين أتى بهم فرعون مغالباً بهم سيدنا

موسى ، فإنه لما تبين لهم الحق ، قالوا على ملاء من الأشهاد وفي وجهه فرعون « (آمنأ برب هارون وموسى) .

ونارت نائرة فرعون ، وغلى مرجل غضبه . وهددهم بإنزال أفضع ألوان العذاب فاجبنوا ، وما تخاذلوا .

ولنترك مجال الحديث للقرآن يصور لنا هذه القصة فى سورتن كرتبتن : سورة الأعراف وسورة طه .

يقول تعالى فى سورة الأعراف :

(ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون ومكثه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين . وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين . حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل ، قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه ، فإذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ، قال الملاء من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم فإذا تأمرون ، قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم ، وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ، قال نعم وإنكم لمن المقربين ، قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ، قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم . وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ، ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ، وألقى السحرة ساجدين ، قالوا آمنأ برب العالمين . رب موسى وهارون ، قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكرٌ مكرومه فى المدينة لتُخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ، قالوا إنا إلى ربنا منقلبون ، وما تقم منا إلا أن آمنأ بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) .

ويقول الله تعالى متحدثاً عن فرعون فى سورة طه : (ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى ، قال أجبثنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ، فلنأتيتك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى ، قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشرناس ضحى . فتولى فرعون فجمع كيدَه ثم أتى ، قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب خاب من افترى ، فتنازعا أمرهم بينهم وأسروا النجوى ، قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاك من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى . فأجمعوا كيدكم ثم أتوا صفاً وقد أفلح اليوم من استعلى . قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ، قال بل ألقوا فإذا

جبالهم وعصيتهم يحيلُ إليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس في نفسه خيفة موسى ، قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ، فألقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى ، قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلا تقطن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبناكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أبنا أشد عذاباً وأبى ، قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنا برينا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبى ، إنه من يأت ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ، ومن يأتته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى ، جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى .

مؤمن آل فرعون

ويقص القرآن الكريم علينا قصة مؤمن أخفى إيمانه ليكون أكثر فاعلية فى مساعدة المؤمنين ، إنه مؤمن ومن آل فرعون .

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ، إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا : ساحر كذاب ، فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم ^(١٥) وما كيد الكافرين إلا فى ضلال . وقال فرعون ذرونى ^(١٦) أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد . وقال موسى إنى عدت ^(١٧) بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ، وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً ^(١٨) أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات ^(١٩) من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم . إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ، يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد . وقال الذى آمن يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ^(٢٠) مثل دأب ^(٢١) قوم نوح

(١٥) واستحيوا نساءهم .

(١٦) أى اتركونى أقتله .

(١٧) اتجأت إليه متحصناً به .

(١٨) بسبب أنه يقول ربي الله فلا يقوله فرعون .

(١٩) بالجمع الواضحات وهى المعجزات التى شاهدها .

(٢٠) الأحزاب الأمم والطوائف التى هلكت من قبل وأبادهها الله بسبب الإشراك به والتكذيب بأنبيائه وإتيان المعاصى .

(٢١) مثل الجزاء الذى نزل بقوم نوح وعاد وثمود ومن أتى بعدهم .

وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلماً للعباد . ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد ، يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ، ومن يُضلل الله فما له من هاد ، ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ، وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب . أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً ، وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصدّ عن السبيل ، وما كيد فرعون إلا في تباب . وقال الذى آمن يا قوم اتبعوا أهدكم سبيل الرشاد . يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار . من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب . ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار ، تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لا جرم أنا تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار ، فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمري إلى الله ، إن الله بصير بالعباد ، فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب .

صور تتعارض مع الإيمان

مثل الملحد :

(واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين، ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض . واتبع هواه فثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) .

إن آيات الله محيطة بالإنسان من جميع أقطاره ، فالسماوات من آيات الله ، والأرض من آيات الله ، والأشجار من آيات الله ، والأنهار والجبال ، والمحيطات ، والنجوم والكواكب ، كل ذلك من آيات الله ، هذا الإبداع المحكم الذى يحيط بالإنسان من جميع أقطاره هذه الآيات التى تحيط بالناس ، أينما كانوا والتى تنادى بجلال الله وعظمته . حاول بعض الناس الانسلاخ منها ، فلم يقرؤا بالألوهية الإقرار السليم ، والتعبير بالانسلاخ من أحكم وأدق وأروع ما يكون ، ولقد حاولوا الانسلاخ منها وهى ملتصقة بهم التصاق جلد الإنسان بالإنسان ، وانسلخوا منها بعد لآى وعلى خلاف الفطرة ، وعلى وضع لا يتلاءم مع النظام الطبيعى ، وانسلخوا بذلك من محيط الألوهية ، إنهم خرجوا عن سدادق الألوهية وخرجوا عن أن يكونوا من عباد الله فتهيؤا بصنيعهم هذا ليكونوا من أتباع الشيطان . وسهل على الشيطان غزوهم ، فغزاهم بخيله ورجله فكانوا من الغاوين ، ولو شاء الله لرفعهم بآياته ، ولكن العيب جاء منهم هم إذ أخذوا إلى الأرض واتبعوا أهواءهم . وسواء كنا بصدد من أخلف إلى الأرض أو بصدد من اتبع هواه ، فإن مثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث .

ولكن لِمَ يلهث فى كلتا الحالتين ؟

إن الذى أخلد إلى الأرض مها بسط الله له فى الرزق فهو ضيق بحياته لأنه لا يطمئن إلى شىء روحى يقنعه ، والمادة - مها أوقى الإنسان منها - فإنها - ما دام الإنسان جسعاً - لا تنتهى إلى إرضائه ، لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب لطلب ثابتاً - ولو كان له واديان لطلب ثالثاً . وإذا ضيق الله عليه فى الرزق فإنه يلهث ، وذلك واضح .

ومن أثر اتباع الهوى فإنه لا يعتمد على هاد يطمئنه ولا على اطمئنان يسكنه وهو ضيق بالحياة

ذرعاً لأن هواه لا تحده حدود ، ولأن خياله لا يكبح جماحه مبدأ ، ولا خلق كريم ، ولا مثل أعلى ثابت ، فمثل كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث .
وهذا المثل إنما مثل الذين كذبوا بآيات الله وقد أنزله تعالى ليضكر فيه الناس وليتعتظوا به ولعله يقود إلى الهداية والرشاد هؤلاء الذين انحرفوا عنها ..

في صفات الذين لم يعمر الإيمان قلوبهم

لقد أبان الله عز وجل عن الكثير من صفات غير المؤمنين فقال تعالى في سورة (القلم) :
(فلا تطع المكذبين^(٢٢) ، ودّوا لو تدهن فيدهنون^(٢٣) ، ولا تطع كل حلاف مهين^(٢٤) ،
همّاز بنميم^(٢٥) ، منّاع للخير معتدي أثم ، عتل بعد ذلك زنيم^(٢٦) ، ان كان ذا مال وبنين^(٢٧) ،
إذا تلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، سنسمه على الخراطوم^(٢٨)) .
هذه بعض أوصاف غير المؤمنين تكون فيهم متفرقة أو مجتمعة كل بحسب درجته في الإشراف بالله ، والإلحاد . ثم يقول الله تعالى بعد هذه الآيات مباشرة : (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة)

وصورة أصحاب الجنة من الصور التي تتعارض مع الإيمان الصحيح .

-
- (٢٢) الذين كذبوا بآيات الله وكذبوا برسله .
(٢٣) ودوا لو تدين هم فيلون لك . أى : هؤلاء المكذبون أن تمالئهم بإجابتك إياهم إلى الركون إلى باطلهم فبالثونك باتباع بعض ما تقول دون إيمان منهم به .
(٢٤) كثير الحلف حقير .
(٢٥) عياب : يمشى بين الناس بالبيعة للإفساد بينهم .
(٢٦) يمنع الخير : كلما استطاع - عن الغير - ويتجاوز العدالة إلى الظلم بالتعدى على الناس كثير المعاصي .
والعتل : الحاف في المعاملة ، الغليظ في السلوك . والزنيم : الدعى في نسبة أى من ينسب إلى غير أبيه ومعنى « بعد ذلك » أى مع كل هذه القبائح والآثام فإن هناك ما هو أقيح منها وهو زنيم .
(٢٧) يقول صاحب الكشاف عن هذه الآية : إنها متعلقة بقوله (ولأنطع) يعنى ولأنطعمه مع هذه المثالب لأنه كان ذا مال وبنين . أى : ليساره وحظه من الدنيا ، ويحوز أن يتعلق بما وعده على معنى لكونه مشمولاً مستظهِراً بالبنين . كذب بآياتنا .
(٢٨) المعنى سنطبخ بعلامه على أفقه أى سنجعله في غاية الذل والمهانة جزاء بما كذب وتكبر .

صور أصحاب الجنة

وهي قصة قديمة حديثة ، إننا نقرأها على أنحاء متعددة في آثار الماضين ، ونشاهدها على ألوان مختلفة في حوادث عصرنا الراهن .

ومجمل القصة كما يرويها القرآن أن جملة من الأولاد ورثوا عن أبيهم بستاناً يانعاً ناضراً « إنه جنة » .

فلما حان قطاف الثمار الناضجة الشهية وطنوا العزم ، وصمموا الإرادة ، وأقسموا على أن يستأثروا بجميع ما حملت وأن ينحسروا أنفسهم بالتمين والحقر ، ولا يدعوا لفقير ولا لمساكين من حظ .

وسولت لهم أنفسهم وسول لهم الشيطان ، أنهم أحق بكل ثمرة فيها من الفقراء والمساكين ، أليسوا أصحاب عيال ؟ أليسوا أصحاب أسر ضخمة ؟ وكيف يطمثون على رزقهم في الغد ؟ إن الغد مجهول ، ولا يدري الإنسان ما يأتي به المستقبل من أحداث فعليهم إذن أن يمنعوا تسرب أية ثمرة من هذه الثمار إلى أيدي محتاجة أو بطون جائعة تتمثل في الفقراء والمساكين .
ولما ارتفع صوت أوسطهم يدعوههم إلى حق الله زجره ، ولم تجد كلمة الحق منه عندهم آذاناً مصغية ولا قلوباً مفتحة .

لقد بيتوا هذا العزم بليل ، وقدرهوا أمراً ، وقدر الله أمراً .
فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت جنهم خراباً ولا شجر فيها ولا ثمر .
وجاء هؤلاء الذين دبروا المؤامرة بليل ، جاءوا متلصقين حذرين ، جاءوا وهم يتخافتون ألا يدخلها اليوم عليكم مسكين . فلما رأوها وقعوا في حيرة ، وظنوا أنهم ضلوا الطريق وتلبلت أفكارهم أخذاً ورداً ، فلما تيقنوا من الأمر أسقط في أيديهم وكان ذلك درساً قاسياً وكان عبرة ، وكان عظة .

وفي لمحات من التركيز الواعي ، أصبح عندهم الاستعداد الكافي لأن يرجعوا إلى الله ويتوبوا إليه ، وهنا ارتفع صوت أوسطهم .

(ألم أقل لكم لولا تسبحون)

ووجد هذا النداء آذاناً مصغية وقلوباً متفتحة فنطقوا في إخلاص . (سبحان ربنا إنا كنا ظالمين) . وأخذوا يستعرضون أمرهم . (فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون) فقد تدارسوا فيما

بينهم الأمر واستتجوا منه العظات والعبرة ، وانتهوا إلى الوصف الصادق الذى ينطبق عليهم فى مؤامرتهم ضد الإنفاق فى سبيل الله فقالوا :

(يا ويلنا إنا كنا ظالمين)

ثم تابوا توبة نصوحاً خالصة إلى الله فى صدق وكانت نهاية قولهم .

(إنا إلى ربنا راغبون)

والله قد يرى بالابتلاء ، كما أنه قد يتلى بالنعم . والمؤمن الحق الذى - لا يفرح بالنعمة إلا على أساس أنها توصله إلى مرضاة الله ، ولا يقنط للابتلاء لأن الصبر عليه إنما هو مرضاة الله ، وأن المال قد يكون ابتلاءً إذا أقبل وقد يكون ابتلاءً إذا أدبر ، وقد يكون نعمة إذا أقبل ، وقد يكون نعمة إذا أدبر ، والمثل الأعلى هو ألا نجعل المال فى إقباله وإدباره إليها يعبد من دون الله ، وأن نسمو بأنفسنا حتى لا نجعلها من عبيد المال ، وحتى نحررها من رق الذهب والفضة وذلك بأداء حق الله ، والإنفاق فى سبيله .

عن أبى واقد الليثى قال : كان رسول الله ﷺ « إذا أوحى إليه ، أتيناه يعلمنا لما أوحى إليه فجئته ذات يوم فقال : إن الله عز وجل يقول : « إنا نزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولو كان لابن آدم وادٍ من ذهب لأحب أن يكون له الثانى ، وإن كان له الثانى لأحب أن يكون له الثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب . ويقول صلوات الله وسلامه عليه : خلطان يحبهما الله عز وجل ، وخلتان يبغضهما الله عز وجل ، فأما اللذان يحبهما الله فحسن الخلق والسخاء . وأما اللذان يبغضهما الله فسوء الخلق والبخل ، وإذا أراد بعبد خيراً : استعمله فى قضاء حوائج الناس .

والصورة التى تتعارض مع الإيمان فى هذه القصة إنما هى الشح والبخل التى غمرت أصحاب الجنة ، قبل التوبة وقبل العودة إلى الله ، فكان الابتلاء خيراً إذ أنه كان سبباً فى أن تعمر قلوبهم بالإيمان .

قارون

كان قارون من قوم موسى ، وقد نشأ فى ربوع مصر ، وآتاه الله ثروة عريضاً ورزقه من المال مالا يكاد يحصى ولا يعد ، وهياً له من وسائل الحياة الهائلة وأسبابها الشىء الكثير ، فكان مع ثرائه الواسع قوى الجسم وضىء الصورة إلى درجة أن كان يسمى « المنور » وكان إلى ذلك طلق اللسان ، جذاب الحديث ، آتاه الله كل ذلك . وآتاه أكثر من ذلك ، فكان منطق الحكمة أن يؤدى لله حق

الشكر على نعمه ، وأن يتصرف فيما منحه الله إياه تصرف المعترف بالفضل الذى لا ينكر الجميل . ولكن نفسه كانت تتطلع إلى غير ذلك . لقد أجال بصره فى بيئته وفى عشيرته فلم يجد ما يساعده على أن يكون حاكماً ، أو صاحب ولاية ورتاسة ، فأخذ ينسلخ من عشيرته وينفصل عن قومه ، ويتقرب إلى فرعون يداهنه ، ويتملق كبرياءه ، ويتلف إليه حتى أصبح من جلسائه وفى فترة من الفترات وجد نفسه ينعم بجاه الثروة ويستمتع بجاه السلطان .

فانتشى بهذا المجد الزائف ، وملأه الغرور ، واستولى عليه الكبر ، ورسخ فى نفسه أن السعادة إنما هى الثراء والجلوس مع فرعون .

ولما قر فى نفسه ذلك ، نسى الله أو تناساه ، فتعود عادات الذين لا دين لهم من ازدياء العشيرة واحتقار الفقراء ونضوب معين الرحمة من القلب ، واعتبار أن الحياة الدنيا هى كل شىء . وأن المثل الأعلى إنما هو الاستمتاع على أى وضع كان ، وفى أى صورة حدثت .

وسارت الحياة به على هذا النمط رخاء فترة من الزمن فاعتقد أنها ستسير به هكذا إلى النهاية . . ولكن ، وفى يوم من الأيام بينما كان يجلس قارون مع فرعون وهامان دخل موسى عليه السلام يعرض عليهم الرسالة التى كلفه الله بتبليغها ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب .

لقد كان المنتظر من قارون أن يدافع عن موسى ، إن لم يكن من أجل الحق الواضح فمن أجل العصبية والجنسية ، ولكنه ضرب بالحق ، وبالعصبية عرض الحائط ، وجارى فرعون ، حرصاً على ماله ، واحتفاظاً بثروته ، وقال كما قال فرعون : « ساحر كذاب » ومن أجل الإبقاء على ثروته جارى فرعون فى إسرافه وطغيانه فقال موافقاً له اقتلوا الذين آمنوا معه (مع موسى) واستحيوا نساءهم .

ولما قال فرعون (ذرونى أقتل موسى) لم يحاول قارون الدفاع عن رسول الله ، وإنما الذى فعل ذلك رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه .

وارتكب قارون كل ذلك إثماً للمال ، وخوفاً على الثروة من أن يصادرها فرعون لو خالفه فيها يرى من رأى ، وغاب عنه أن الثروة والملك والدنيا والآخرة بيد الله وحده ، وكما أنه سبحانه المانع الوهاب فإنه تعالى المانع القابض .

ولما رأى بعض الصالحين من قوم قارون أن الثروة والجاه أفسداه تشاوروا فيما بينهم ، واتفقوا على أن يسدوا إليه النصيحة ، فلما اجتمعوا به ، تطفوا فى القول ما استطاعوا وأجملوا النصيحة فى أمور خمسة هى فى الواقع القواعد العامة المثالية لما ينبغى أن يكون عليه الأثرياء ، وهى القانون

الذى يجب أن يخضع له أهل الغنى قالوا له :

١ - إنك مباه بثروتك - فخور بها ، فرح بكثرة المال ، وما ينبغي أن يكون الفرح بالمال إلا لأنه وسيلة إلى النفع ، فلا تفرح بكثرة المال فرح بطر ، فإن الله لا يحب الفرحين الذين يتمثل فيهم ذلك .

٢ - وقد آتاك الله الكثير المتنوع فابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، واتجه في كل ما أتى وما تدع إلى تقوى الله ومرضاته .

٣ - والدنيا مزرعة الآخرة وطريقها فلا تنس نصيبك من الخطوات في هذا الطريق بالعمل الصالح الذى سيكون رصيدك يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

٤ - وأحسن كما أحسن الله إليك ، فاجعل زكاة مالك مساعدة الفقير وزكاة قوتك نصرة الضعيف وزكاة جاهك معاونة المظلوم حتى يسترد حقه .

٥ - ولا تبغ الفساد فى الأرض : إن الله لا يحب المفسدين .

ولكن هذه المبادئ السامية : التى إذا عمت كانت الدستور لكل صاحب جاه أو نعمة لم تلق أذناً مصغية لدى قارون الذى ألهاه التكاثر فقال ساخراً متحدياً لا يبالي . (إنما أوتيته على علم عندى) .

لقد أوتيت هذا المال بسبب تدبيرى وحكمتى وحسن تصريفى للأمر ، وحدى الذى لا يخطئ فى شئون التجارة ورأى الصائب فى ارتفاع الأسعار ونزولها ، وأنكر بذلك أى أثر إلهى للنعمة التى ينعم بها .

وتناسى قارون وهو فى نشوة الثراء ، وحاسة الجدل ، الأخبار الصحيحة التى تدل على أن الله سبحانه أهلك كل ذى جاه لم يتق الله فيما أنعم به عليه ، ولم يؤد حق النعمة مالا كانت أوقوة أو رئاسة .

(أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً) وأراد قارون أن يتحدى وأن يسخر وأن ينعم بالتحدى والسخرية ممن نصحوه فخرج يوماً على قومه فى موكب كأهبي ما يكون من الزينة والأبهة ، وكأضوا ما يكون بريقاً وزخرفاً لقد خرج على قومه فى زيبته - فى كل زيبته - فلدت إليه الأعين ، وأخذ بريق الذهب الذى يتحل به الركب يخطف بالأبصار ، ولمعان الفضة المحلاة بها سروج الخيل يجلب الأفتدة .

وتهادى الركب بقارون وهو ينظر ميماً وشمالاً فى كبرياء سافر ، وفى غرور مكشوف ولما رأى هذا المنظر الذين يسرون بحسب قانون الغرائز ويريدون الحياة الدنيا فتنهم بريق الذهب ، ولمعان

الفضة وزخرف الموكب فقالوا في شهوة غلابة وفي جوع إلى المال لهم .

(ياليت لنا مثل ما أوتى قارون ، إنه لذو حظٌ عظيم)

ولكن الذين هداهم الله إلى صراطه المستقيم ردوا عليهم منبهين : (ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً) .

وسنة الله لا تتخلف عادة ، نذكر منها فيما نحن بصدده قوله تعالى : (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزبنت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاهم أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس) .

وقوله تعالى : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفياً ، ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) .

وإذا كانت هذه سنة الله في الأرض (وفي القرى) فإذا ينتظر أن تكون في قارون وأمثاله ؟ إنها : (فحفظنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) .

ولما رأى الذين تمنوا مكان قارون بالأمس ما حل به رجعوا إلى الله وأناجوا إليه (ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخنس بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون) .

أما العبرة من كل ذلك فيلخصها القرآن - عند انتهاء قصة قارون - تلخيصاً جميلاً موجزاً ، (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) . وإلى هنا انتهت قصة قارون ، وكان يمكننا أن نقف عند هذا الحد ، ولكن هناك بعض الطرائف والملاحظات ، يقول الله تعالى : (وآتينا من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة) .

١ - يقول صاحب البحر المحيط : « سميت أمواله كنوزاً لأنها لم تؤد الزكاة وعلى ذلك فإن الأموال التي تؤدي فيها الزكاة لا تدخل تحت قوله تعالى (الذين يكتزون الذهب والفضة) .

٢ - أما عن المفاتيح التي تنوء بها العصبة أولو القوة ، فقد قال أبو مسلم رأياً له طريفاً جداً في تفسيرها فقد قال : المراد من المفاتيح ، العلم والإحاطة كما في قوله تعالى : (وعنده مفاتيح الغيب) ، والمراد : « وآتينا من الكنوز هذه لكثرتها واختلاف أصنافها تتعب حفظتها القائمين على حفظها .

٣ - يذكرنا ثراء قارون بأثرياء المسلمين في العصور الماضية وكان من هؤلاء عبد الرحمن بن

عوف ولكنه رضى الله عنه ، كان يؤدى حق الله كاملا فى ماله ، حتى لقد تبرع يوماً لفقراء المدينة بقافلة كاملة مكونة من خمسمائة جمل بما تحمل من تجارة إذن - فاللئال إنما يكون فتنة إذا لم يؤد حق الله كاملا فيه - وكذلك الأولاد إنما تكون فتنة إذا لم يؤد الوالد حق الله والوطن بتربيتهم خير تربية .

في قوانين إلهية خاصة بالإيمان

والقانون معناه : علة ومعلول ، سبب ومسبب ، مقدمة ونتيجة ، أى أن هناك ارتباطاً بين مقدمات تسمى عللاً وأسباباً ، وبين نتائج تسمى معلولاً أو مسببات .
وإذا كانت قوانين العالم المادى ، وهى أيضاً قوانين إلهية - تطرد عادة ، فإن القوانين التى سندكرها أثبت وأقوى لأن الله سبحانه أعلن صدقها وصحتها .

وهذه الفتوى :

إنما نقدمها لهؤلاء الذين يعتقدون أو يسبرون فى حياتهم كما لو كانوا يعتقدون أن العمل الصالح والتقوى والتوكل ، والصدق والإخلاص إنما هى أمور من أجل الآخرة فقط ، ونفعها إنما يكون يوم الحساب .

ومما لا شك فيه أن نفعها يوم الحساب كبير ولكن الله سبحانه وهو أصدق القائلين ، يبين لنا أن نفعها فى الحياة الدنيا يكون أيضاً نفعاً كبيراً ، وأن فائدتها فى سلوكنا اليومى وفى تصرفاتنا ، وفى أمتنا ، وفى السكينة نغمر قلوبنا ، وفى إزالة الحيرة والخوف من قلوبنا . . فى كل ذلك وغير ذلك من وجوه الخير بالنسبة لنا ، وبالنسبة لأهلنا . . كبير . .

في فائدة الإيمان بالنسبة للفرد القوانين الإلهية الإيمانية المتعلقة بالفرد

وإذا تحقق المؤمن بالإيمان الصادق فإنه يكون قد فاز بجزى الدارين . ومن أعظم ما يفوز به أن الله يصبح وليه ، ويخرجه من الظلمات إلى النور .
(الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) .
ويهديه الله الصراط المستقيم .
(وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم) ويتكفل الله بنجاته .

(ثم نتجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا نتج المؤمنون)
ويتكفل الله بنصره في الدنيا والآخرة .

إن الله سبحانه ينه أولاً على أن النصر من عند الله . (وما النصر إلا من عند الله) . وينبه ثانياً إلى : (إن ينصركم الله فلا غالب لكم) ثم يرشد إلى أن نصر المؤمنين حق عليه سبحانه . (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) .

ويؤكد ذلك مبيناً أن نصره سبحانه يتضمن النصر في الحياة الدنيا ولكنه لا يقتصر عليها وإنما يتحقق في الآخرة أيضاً ، يقول سبحانه :

(إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) .

ولكنه سبحانه يبين في صورة لابس فيها هؤلاء الذين ينصرهم فيقول (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) .

والتقوى داخلة في نطاق الإيمان ومن قوانينها : (إن تقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم ، والله ذو الفضل العظيم) .

(ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) .

والتوكل داخل في نطاق الإيمان وقانونه : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) . ومن الإيمان الرحمة ولها قوانين :

١ - الراحمون : يرحمهم الرحان .

٢ - ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء .

٣ - لا تترع الرحمة إلا من قلب شقى .

٤ - عدم الجزى في الدنيا والآخرة وهذا القانون أعلته السيدة خديجة رضوان الله عليها حينما

أقسمت للرسول ﷺ قائلة :

كلا والله ما ينجزيك الله أبداً .

ثم عللت عدم الجزى بقولها :

إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل وتكسب العدم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب

الخطى . وهذا الوصف إنما هو تفصيل لأوضاع الرحمة أو هو الرحمة مفصلة ، ومن القوانين التي

تتصل بالرحمة ما يلي :

١ - من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة .

٢ - ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة .

- ٣ - ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة .
- ٤ - والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه .
- وما من شك في أن التوبة أول المعارج في سلم الإيمان الصادق ، ومن قوانينها :
- ١ - إن الله يحب التوابين .
- ٢ - (استغفروا ربكم إنه كان غفّاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً) .
- ويرسم رسول الله ﷺ كيفية تحقيق الإيمان الصادق في طي حديث رواه إمام المحدثين الإمام البخاري رضي الله عنه في أصح كتاب بعد كتاب الله سبحانه وتعالى .
- ينجز رسول الله ﷺ في حديث قدسي عن رب العزة .
- « من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب » .
- « وما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه . وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني أعطيته ، ولإن استعاذني لأعيذه » ويتوج كل ذلك قوله تعالى :
- (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) .

في الإيمان والمجتمع

أما الأمن في المجتمع ، فإنه يقاس بدرجة الإيمان في الأفراد ، فكلما ازداد إيمان الأفراد أمن الناس على دمائهم وأعراضهم وأموالهم ، وكلما خف وزن الإيمان في النفوس اضطرب الناس واستولى عليهم القلق ، فيما يتعلق بدمائهم ، وأعراضهم وأموالهم مها كانت سيطرة القانون وقوته ، فالقوانين لا تمس من الإنسان إلا الشكل الظاهر .

أما الإيمان فإنه يسيطر على الكيان الإنساني كله . ومن هنا كانت ضرورة الإيمان للمجتمع ، وحاجة المجتمع للإيمان ، وإذا ما سيطر الإيمان على الكيان الإنساني كله كان المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يتوآدون ويتعاطفون ، ويتآخون في الله ، يصور رسول الله صلوات الله عليه وسلامه ، هذه الولاية خير تصوير فيقول :

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .

ويقول في روعة رائعة :

« مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

ويقول الله تعالى : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم) .

والمؤمنون قوامون إذن على المجتمع : يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولكنهم من قبل ذلك ، ومن بعده يأتمرون في أنفسهم بالمعروف . ويتبتون في أنفسهم عن المنكر لأنهم مؤمنون ، ويقيمون الصلاة ، تزكية لنفوسهم وتطهيراً لقلوبهم ، ويكررون الصلاة استدامة لهذه التزكية واتباعاً لما أمر الله .

(إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً)

(إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)

وهم يؤتون الزكاة تطهيراً وتزكية لأموالهم ونفوسهم وإعانة للفقير والمسكين وصاحب الجاه . ومن خصائص المؤمنين التي ذكرت في الكتاب والسنة وفي الآية السابقة ، أنهم يطيعون الله ورسوله .

والقرآن يقرن عادة طاعة الرسول بطاعة الله عز وجل ، بل يجعل طاعة الرسول ، طاعة الله عز وجل .

(ومن يطع الرسول فقد أطاع الله) .

ومن هنا كانت نزعة شيطانية : ذلك التيار الذي ينساب كالأفعى مشككاً في أحاديث رسول الله ﷺ منزللاً لمنزلتها في النفوس باسم البحث العلمي ، وما هو من البحث العلمي في شيء ، وإنما هو حب الظهور ، وحب الشهرة واتباع الهوى على حساب الحق وعلى حساب الإيمان والأمن ، والسلام الروحي .

وإنه لمن المعروف أن حب الشهرة إنما هو من مركبات النقص ، التي تقود الإنسان إلى ارتكاب كل موبقة ، ولسنا بصدد الحديث عن هؤلاء الآن ، وإنما نريد أن نبين أن الآية الكريمة السابقة التي أضفت على المؤمنين هذه الأوصاف السامية تنتهى بقوله تعالى ، تفضلاً عليهم وتبشيراً لهم :

(أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم) .

إنهم إذن ناجون ، وهم متصرون ، وهم في قبس من رحمة الله ، لا ينقطع وما ذلك إلا لإيمانهم ، وليس إيمانهم الذي نالوا به هذه المنزلة بالأمر الهين .

فالإيمان بضع وسبعون شعبة ، أدناها إماطة الأذى عن الطريق « ولا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

والمؤمن من آمنه الناس على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم .

والمؤمن كله منفعة إن شاورته نفعك ، وإن شاركته نفعك وإن ماشيته نفعك فأمره كله منفعة .

ولقد كان صحابة رسول الله ﷺ رضى الله عنهم يجلسون حوله ، وإذا بهم يسمعون يقول « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، فاستفسر الصحابة رضوان الله عليهم عن الأمر ، فقال : « من بات شبعا وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم »

ويقول صلوات الله وسلامه عليه ، « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره وليصل رحمه ، وليقل خيراً أو ليصمت » .

وهكذا الإيمان لو تتبعنا جميع جوانبه ، لوجدنا أثره في المجتمع كبيراً ، ولوجدناه إيجابياً لا سلبية فيه .

وللإيمان موازين لا تخطئ يزن بها نفسه من يدعى الإيمان ، ويزعم أنه في زمرة المؤمنين ، نذكر من ذلك قول رسول الله ﷺ يسأل بعض أصحابه رضوان الله عليهم . « أتصبرون عند البلاء ؟ قالوا نعم : أتشكرون عند الرخاء ؟ قالوا : نعم : أتثبتون عند الحرب واللقاء ؟ قالوا : نعم قال : مؤمنون ورب الكعبة » .

أما بعد فإن الله سبحانه أوجز لنا تحديد المؤمنين في كلمات قليلة تتضمن من المعاني الشيء الكثير فقال : سبحانه في كتابه الكريم (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون) وهذه الآية مبتدئة بأداة الحصر هي المقياس الصحيح للإيمان .

فن ظن بنفسه الإيمان فلينظر إلى هذه الآية فإن وجد أنها لا تتحقق فيه فليعمل على إكمال نفسه ، ومن رأى أنه يمثلها فليحمد الله مصدر الهداية والتوفيق .

ويشكره سبحانه على ما تفضل به عليه .

في نتيجة النطق بالشهادتين

إذا نطق الإنسان بالشهادتين - أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله - فهو مسلم ولزمه أن يؤدي جميع فرائض الإسلام فيجب عليه أن يقيم الصلاة ، ويؤتي الزكاة ، ويصوم رمضان ، ويحج البيت إن كان مستطيعاً ، ومن امتنع عن أداء ركن من هذه الأركان لا يخرج ذلك من الإسلام إلا إذا كان امتناعه عن إنكار وجحود لهذا الركن أو ذلك .
 فمن امتنع عن أداء الزكاة تهاوناً فهو مسلم عاص مطالب بأدائها ، أما إذا كان امتناعه عن إنكار فريضة فإنه يكفر بذلك ويخرج من عداد المسلمين لأنه أنكر ما علم من الدين بالضرورة .
 ولقد حارب سيدنا أبو بكر رضي الله عنه الممتنعين عن أداء الزكاة بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وإنما حاربهم سيدنا أبو بكر حرب مرتدين لأنهم أنكروا أن تكون الزكاة من أركان الدين أو من أقرانها من أركان الدين ومع ذلك لم يؤدها فثله كمثل من يعترف أن الصوم مثلاً من أركان الدين ومع ذلك لا يصوم ، إن هذا أو ذلك ماداماً مقرين فهما من عصاة المسلمين أما من أنكر فهو كافر ..

في الدليل المقنع على وجود الله

الدليل المقنع على وجود الله آثاره المشاهدة التي لا يمكن أن تكون موجودة بغير قوة كبرى على قدرة وعلم وصفات يصدر عنها هذا الإبداع وهي قوة الله تعالى : والإيمان بوجود الله حقيقة مقررة في فطرة الإنسان منذ خلق ، والرجل البدوي حين سئل عن وجود الله بفطرته فقال :
 البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير فسماء ذات أبراج . . وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج أفلا يدل ذلك على اللطيف الخبير؟ وأنت تعلم أن آدم خلق وهبط إلى الأرض وفي قلبه هذه الحقيقة ، ونشأت ذريته الأولى على هذا الإيمان ولما تفرقوا في طول البلاد وعرضها ، شغلهم طلب العيش والمأوى عن التفكير في خالق هذا الكون وهديتهم فطرتهم إلى أن هناك من هو أقوى منهم يسيرهم ويسيطر عليهم بما يرونه من كواكب ومخلوقات شتى حاولوا التقرب إليها أو التحصن ضد خطورها ، وكما يتحدث علماء الفلسفة والأجناس البشرية رموزاً إلى هذه القوة الخفية بما يعبر عن عقيدتهم في شكل تماثيل أو غيره .
 ومن هنا جاء الرسل لتلقت أنظار الضالين إلى حقيقة الألوهية .

ومها يكن من شيء فإن علماء العصر الحديث على الرغم من تنكروهم للدين الذي عاشوا في ظله قروناً وحرّمهم كثيراً مما يحتمه انطلاق الفكر ونشاط الإرادة فلم يستطيعوا أن ينكروا وجود إله وراء هذه المادة التي هي وعاء علمهم وتجاربهم وكان أسلوبهم في البحث بعيداً عن الأسلوب التقليدي الديني الذي ثاروا عليه ، ولو شئت لأوردت لك كثيراً من أقوال كبارهم في إثبات وجود الإله ، ولكنني أحيلك على كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) الذي جمع فيه « جون كلوفرموسما » الباحث الديني الاجتماعي كثيراً من شهادات علماء أمريكا المتخصصين في سائر العلوم بما يؤكد اعتراف العلم بوجود الله .

وإن شئت دليلاً على طريقة المتكلمين وعلماء التوحيد على وجود الله أحيلك على رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده « ولعلك توفق إلى فهم الأسلوب الموضوع للاستدلال على وجود الله سبحانه . اعتقد أيها السائل أنك ما دمت مسلماً ومؤمناً بالتالي بوجود الله فلا تشغل نفسك بأمر لا يعنى به إلا الفلاسفة والعلماء المختصون الذين ينفقون وقتاً كبيراً في الجدل والمناقشة .

في المعجزة تدل على صدق الرسول

إن قيام سيدنا محمد ﷺ بالدعوة إلى دين جديد حقيقة تاريخية مقررة ، لا ريب فيها وتلك آثارها شاهد صدق عليها ، ولما جاء بالدعوة وكذبه قومه وطلبوا منه ما يثبت صدقه بالإضافة إلى ما عرفوه عنه من صدق وأمانة وقد اتزع منهم هذا التصديق المبدي بقوله : « رأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً وراء هذا الوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي » ؟ :
قالوا : ما جربنا عليك كذباً ، فقال لهم : « إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .
فلما كذبوا جاءهم بالقرآن متحدياً به فعجزوا وبعشر سور فعجزوا وبسورة فعجزوا على الرغم من أنهم فرسان البلاغة والفصاحة ، وقد نص على ذلك قول الله تعالى (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) .

وحيث إنهم عجزوا عن محاكاته علم أنه ليس من صنعه فيكون من صنع الله وحده الذي جعل المعجزة دليلاً على أن الرسول مبعوث من عنده ، وقد صح في الحديث المتفق عليه ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة .

وإذا صدقنا بالقرآن معجزة صدقنا برسالة سيدنا محمد وبكل ما جاء به فالآيات في القرآن

كثيرة تثبت رسالة جميع الرسل السابقين وإن شئت توضيحاً لهذه الحقيقة فارجع إلى رسالة التوحيد (للشيخ محمد عبده) .

في الإسلام صالح لكل زمان ومكان

إن الإسلام هو آخر الأديان جميعاً وهو صالح لكل زمان ومكان ، وبحيث يتمشى مع تطور البشرية في عصورها المختلفة ويناسب كل بيئة منها كان مستواها وذلك بفضل قواعده الكلية ونصوصه الجامعة التي تدع مجالا واسعا للتفسير والتطبيق على الأحداث والقضايا المتجددة . والمتنوعة ، وتوضيح ذلك يحتاج إلى مساحة واسعة وأحيلك إلى كتاب (الإسلام دين عام خالد) للمرحوم محمد فريد وجدى .

أما من جهة مسيرته للتقدم العلمي الحديث وما جاء به من كشف فإن الإسلام كرم العقل وقدره ، وحث على النظر والفكر والتدبر في ملكوت السموات والأرض ، وشجع كل باحث على البحث مهما كانت النتيجة التي يصل إليها ، فله أجر إن أخطأ ، وأجران إن أصاب ، وما جاء به العلم من كشف في العصور الزاهية للإسلام وفي عصر النهضة الحديثة ، فإنما هو نفعة من نفعات السياسة العلمية التي لم يجيء في غير الإسلام ما يضاهاها قوة ودقة وتشجيعاً ، وهو لم ينص على اكتشاف معين فما أكثر الاكتشافات ، وحتى يجعل لبعضها نوعاً من الاهتمام يثير جدلاً وأن يبحث على البحث قال تعالى : (سزيرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) . وقد حاول بعض الناس أن يلتمسوا نصوصاً صريحة تدل على اكتشاف معين ، ولكنهم تعسفوا في التأويل بما لا حاجة إلى القرآن ، فيكفيه التشجيع العام للعلم وتكريم العلماء وتسخير الكون كله أرضه وسمائه لنشاط عقله وفكره وعمله . .

في أن لكلمة « الإسلام » معنيين : أحدهما عام والآخر اصطلاحى خاص

إن المعنى العام هو : إسلام الوجه لله سبحانه وتعالى ، وهو بهذا المعنى : لا يتقيد بزمان ولا مكان ولا بشخص ، فاللقاء الإنسان بنفسه بين يدي الله تعالى مستسلماً لما يريد خاشعاً لربوبيته طالباً لمرضاته . . إن هذا المعنى لا يتقيد بماضٍ ولا بحاضر ولا بمستقبل ، إنه المعنى الخالد الذي

يجب أن يكون عليه كل إنسان في صلته بالله سبحانه وتعالى ، بل هو المعنى والدليل الوثيق لكلمتي (الدين) ومن أجل ذلك كان التعبير القرآني (إن الدين عند الله الإسلام) .

وتفسير الدين بأنه الإسلام : كان ذلك أعمق تعبير وأصدق تفسير ولا يتأتى ولن يتأتى أن تجد لكلمة « الدين » تفسيراً أصدق ولا تعبيراً أرقى من كلمة : « الإسلام » .

ومن أجل ذلك كان منطقياً أن يكون سيدنا آدم مسلماً وأن يكون سيدنا نوح مسلماً ، وأن يقول سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل : (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) وأن يوصى سيدنا إبراهيم وسيدنا يعقوب أبناءهما بالإسلام (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) .
وهكذا الأمر بالنسبة لجميع الأنبياء : فقد كانوا جميعاً من المسلمين . .

أما المعنى الاصطلاحي الخاص فإن هذا الدين الذي أوحاه الله سبحانه وتعالى إلى محمد ﷺ والذي جاهد الرسول وكافح لنشره في مكة طيلة ثلاث عشرة سنة وأخرج منها بسببه ، فهاجر تاركاً الأهل والعشيرة ومسقط الرأس في سبيل الله ثم أخذ يكافح ويجهاد في المدينة المنورة طيلة عشر سنوات حتى بلغ الرسالة وأدى الأمانة إلى آخر ما نزل من وحى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

وتتمثل مبادئ هذا الإسلام بصورة عامة في « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً » .
وتتمثل هذه المبادئ في كل ما أتى به القرآن من عقائد ومن أخلاق ومن تشريع . .
إن المعنى الاصطلاحي الخاص للإسلام يلتقي التقاء تاماً بالمعنى العام يصل هذا الالتقاء إلى حد التطبيق والشرح والتفسير .

إن كل جزئية من جزئيات المعنى الاصطلاحي الخاص إنما كان باعثها : إسلام الوجه لله وغايتها ، وفي نفسها صورة من إسلام الوجه لله ، وضمن آية جزئية : خذ الزكاة مثلاً : فإن باعثها أن يتخلى الإنسان عن المادة بعد امتلاكها مرضاة لله واتباعاً لأمره ، وأما نتيجتها : فهي تخلى الإنسان عن أن يستعبد للمادة في سبيل إسلام وجهه لله وحده ، وهي في نفسها تركيبة للنفس عن أن تكون متعلقة بغير الله وكل هذا : إنما قوة إسلام الوجه لله ، وقد مثلنا بالزكاة متعمدين ، لأن غيرها من الصلاة والحج والشهادة ، والصوم أوضح في تصوير إسلام الوجه لله .

وهكذا يلتقي المعنى العام بالمعنى الاصطلاحي الخاص « ولا يوجد تعبير وإيضاح للمعنى العام إلا هذا الذي بين دفتي القرآن الكريم .

في الحكمة من إرسال الرسل

يقول الله تعالى معبراً عن الحكمة في إرسال سيد الخلق (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) ومن دعاء سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل ، وهما يرفعان القواعد من البيت قولها ، (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم) .

من هذه الآيات ومن غيرها : نعلم أن الحكمة في إرسال الرسل ، إنما هي : تبليغ آيات الله تعالى أي تعاليمه وأحكامه وتكاليفه إلى بني البشر ، إن الله سبحانه وتعالى - لم يرد أن يترك البشر دون هداية في الأمور الأساسية لبناء المجتمع وهي : العقيدة والأخلاق والتشريع ، فأرسل لأهل الأرض الدستور السماوي الذي يؤدي اتباعه والعمل به إلى تركية النفس وتطهيرها وصفائها ، فالأديان والرسل إنما كانوا لبيان الأسس والقواعد التي لا يقوم المجتمع الصالح بدونها وكانوا أيضاً لمصلحة الفرد التي تتمثل في الارتفاع إلى مستوى التزكية والطهر والصفاء ، وهو مستوى يجد فيه مَنْ يحققه السعادة كل السعادة ، والبهجة كل البهجة ، ويشعر من يرتقى في معارجه منغمساً في نور هداية الله سبحانه وتعالى ، بالسكينة تحيط به وبالطمأنينة تملأ جميع أقطاره ، ويشعر فوق كل ذلك برضوان من الله أكبر ، فحكمة إرسال الرسل إذن إنما هي إسعاد المجتمع وإسعاد الفرد والرقى إلى المستوى الذي يرضاه الله لها .

في موطن الرسالة

يقول الله تعالى لرسوله صلوات الله عليه في شأن الرسل : (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك) .

يقول سبحانه (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) فالرسل كثيرون ، وربما كان لم يعلم منهم أكثر مما علمنا ، وأما كن من لم نعلم منهم مجهولة لدينا ، والقول إذن بأن الله اختار الوطن العربي ليكون مهبط الرسالات السماوية ربما يكون فيه بعض التسامح .

ولكنه مما لا شك فيه أن الرسالات السماوية الكبرى الأخيرة نزلت في الوطن العربي .

لقد اختار الله سبحانه وتعالى موسى وعيسى ومحمداً بالذات صلوات الله عليهم فتحدد المكان الذى نزلوا فيه ، فالمكان تابع للرسول واختيار الرسول هو الذى حدد مكان الرسالة .
وأما صفات المواطنين الذين كانوا مع الرسول وحملوا لواء الدعوة معه وبعده ، فإنها صفات وأثر من آثار تربية الرسول نفسه ، وكل رسول إنما هو معلم ومربى ، إنه يعمل منذ الكلمات الأولى للوحي على أن يفرس خلق الخير والفضيلة فى طائفة يريهم تربية دينية هادفة مقصودة ليحملوا الرسالة وينشروا كلمة الله فى مشارق الأرض ومغاربها ومن ذلك نتبين أن الله سبحانه وتعالى إنما اختار أولاً وبالذات إنساناً فتحدد بذلك المكان ، واكتسب المكان نوراً من نور الرسول ، فكان مشرفاً يشرف الرسول ، وخير مكان هو مكان خير الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين . .
والله أعلم .

فى خلافة الله فى الأرض

يقول الله تعالى للملائكة : (إني جاعل فى الأرض خليفة) . .
ولقد استحق الإنسان خلافة الله فى الأرض لأن الله سبحانه خلقه ووضع فيه الاستعداد للتخلق بأخلاق الجبال التى هى لله سبحانه ، ومن المعروف أنه مطلوب من كل شخص أن يتخلق بأخلاق الجبال التى لله سبحانه ، فالله مثلاً : سمي نفسه الرحمان ، بل جعل هذه الصفة تالية للاسم الكريم أعنى . « الله » قال سبحانه : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) ومطلوب من الإنسان أن يكون رحيماً ولقد أعد لأن يكون رحيماً إذا شاء ، والله سبحانه كريم ومطلوب من الإنسان أن يكون كريماً وفيه الاستعداد أن يكون كريماً .
وهكذا خلق الله الإنسان مستعداً للرحمة والكرم والمغفرة والعضو والسلام والعلم والسمع والبصر . . وغير ذلك . .

وكل ذلك من صفاته سبحانه وتعالى . والله سبحانه خالق مصور ومبدع وفى مقابل - ذلك بالنسبة للإنسان العمل والكسح فى الأرض جعلها الله ذلولاً له وسخرها له ، بل سخر الكون كله له من سمائه وأرضه وما بينهما ليستخدم كل ذلك للعلم بالعمل والعمل ، واستحق الإنسان خلافة الله فى الأرض إذن بهذه الصفات الخيرة ، وبالفعل المتواصل ، أما إذا لم يكن كذلك بأن كان شريراً أو كان كسولاً فإنه يكون قد تحلى عن الرسالة التى هياها الله لها ، وهى رسالة الخلافة فلا يكون أهلاً لها .

والله أعلم . . .

في معنى الإيمان في الكتاب والسنة

لقد حدد القرآن مفهوم الإنسان بأنه عقيدة وعمل ، قال تعالى :
 (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم
 يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند
 ربهم ومغفرة ورزق كريم) .

وقد كان مما أمر الرسول به وفد عبد القيس الإيمان بالله وحده - قال : أتدرون ما الإيمان بالله
 وحده ؟ قالوا الله ورسوله أعلم - قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام
 الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس ، فقد أوضح الرسول ﷺ
 حقيقة الإيمان في مفهوم الشرع بأنه يشمل مع التصديق القلبي على الأعمال وهذا ما فهمه السلف
 والمحدثون ومنهم الإمام البخاري .

في فائدة الإيمان بالنسبة للمجتمع

تقاس درجة الأمن في المجتمع بمقياس درجة الإيمان في أفراده ، فكلما ازداد إيمان الأفراد أمن
 الناس على دمائهم وأعراضهم وأموالهم ، وكلما خف وزن الإيمان في النفوس اضطرب الناس
 واستولى عليهم القلق فيما يتعلق بأموالهم ودمائهم وأعراضهم مها كانت سيطرة القوانين ، فالقوانين
 لا تمس من الإنسان إلا الشكل والظاهر .
 أما الإيمان فإنه يسيطر على الكيان الإنساني كله ومن هنا كانت ضرورة الإيمان للمجتمع
 وكانت حاجة المجتمع للإيمان .

في مظاهر الإيمان

إن مقاييس الإيمان ومظاهره كثيرة ، وتتخذ أساس ذلك حديثاً صحيحاً رواه الإمام البخاري
 عن أبي هريرة يقول رسول الله صلوات الله عليه : الإيمان بضع وستون شعبة ، والحياء من الإيمان
 وقد قسم ساداتنا العلماء تلك الشعب في ضوء الأحاديث الشريفة والآيات القرآنية إلى ما يختص
 منها بالقلب ، وما يختص باللسان ، وما يختص بالبدن ، فالحب في الله والبغض في الله من
 الإيمان ، ولا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه ، وإن الذي يؤدي جاره ليس بمؤمن ،

وليس بمؤمن من شيع وجاره جائع ، وإن الجهاد من الإيمان ، والإنصاف من النفس من الإيمان ، وبذل السلام والإنفاق من الإيمان ويتغلغل الإيمان في الحياة الاجتماعية ، حتى يصل إلى السهل من أمرها والميسور ، فتكون إمامة الأذى عن الطريق من الإيمان ، وإذا ما تغلغل الإيمان في النفس وجد المؤمن حلاوة الإيمان ، وشرطها أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار . .

في هل الشك ينقص الإيمان ؟

من علم أنه خلق من عدم وأن من خلقه قادر على أن يعثه بعد موته ومحاسبه على ما قدم لنفسه من خير أو شر ، ومن علم أنه ليس في طوق أحد أن يمنح الحياة لأى شيء حتى الذباب آمن بربه وأذعن لأمره لأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وآمن بالقضاء والقدر وحسبه أنه قد يرى فعل شيء لديه كل أسباب فعله ولكنه لا يتيسر له ذلك فمن الذى حال بينه وبين فعل ما يريد أليس هو الله رب العالمين والشك ينقص الإيمان وقد يذهب به كله ، ونعوذ بالله من زوال الإيمان أو نقصه .

وعليك كلما مر بك خاطر الشك أن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . وأن تقول : بسم الله ذى الشأن عظيم البرهان شديد السلطان ما شاء الله كان ، أعوذ بالله من الشيطان ثلاثاً : أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون - ثلاثاً . رب أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون ثلاثاً . يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك - ثلاثاً .

وتستديم قراءة هذه الأحاديث عقب كل صلاة فإن ذلك يذهب بالشك الذى لديك إن شاء الله ويجعلك من المحافظين . .

وأنصح لك ألا تعارض قول : الله ربى لا أشرك به شيئاً ، فإن لهذا الحديث أثراً كبيراً في إصلاح أحوال ذوى النفوس المريضة . والله تعالى أعلم .

بين العقل والدين

لا يتأتى التعارض بين القرآن الكريم والعقل :

وذلك أن القرآن الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ، وقد نزل القرآن الكريم هداية للعقل في الأمور التي إذا ترك العقل وحده فيها لتعرض دون شك - للضلال ، وهذه الأمور التي لا يستطيع العقل أن يسير فيها إلا على هدى من الله تعالى هي : مسائل العقيدة ، ومبادئ الأخلاق وقواعد التشريع ونظم المجتمع .
وحيثما نستعرض تاريخ الفكر البشرى في هذه المسائل نجد العقل ، قد تحبط فيها حيناً انفصل عن الدين ، وما كانت رسالات الأنبياء إلا لقيادة الإنسانية إلى الحق في أمور العقيدة والأخلاق والتشريع .

ولكن الأهواء تسلط أحياناً فتخيل للإنسان أنها عقليات فيسير الإنسان وراءها مع أنها مجرد أهواء والله سبحانه وتعالى يقول :

(أفرايت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ..)

ويقول تعالى : (أفمن زُين له سوء عمله فراه حسناً ..)

وكل من يرى تعارضاً بين النص والعقل ، يجب عليه أن يعود إلى نفسه ويتأمل من جديد ، وكثيراً ما يكون هذا الذي يسمى تعارضاً بين النص القرآني والعقل إنما هو تعارض بين النص والعادات المألوفة ، ومألوفات الناس في حياتهم العادية لا تتحكم في النص وخوارق العادات التي يجريها الله تعالى على يد بعض أنبيائه أو على يد بعض أوليائه ، إنما هي خوارق عادات وليست خوارق عقليات .

وعلينا إذن أن نتدبر في تأمل كل ما يمكن أن نتوهمه تعارضاً بين النص والعقل فسنرى في النهاية أن النص والعقل يسيران في انسجام . تام . .

والله أعلم . .

في مشكلة القدر

« اتبعوا ولا تتبدعوا فقد كُفيتُم » :

هذا الحديث الشريف يلخص المنهج الذي نحب أن يسير عليه العالم الإسلامي في أمر العقيدة .

نحب أن يسير عليه رأياً وفكرة ، ونحب أن يسير عليه - من قبل استعداداً وتأهلاً . وهذا الاستعداد والتأهل يتأتى على الخصوص بوساطة دور التعليم في جميع مراحلها والصحافة والكتب التي تنشر .

وهذا الحديث الشريف يسانده في معناه ما لا يكاد يحصى من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، والآثار التي وردت عن كبار الصحابة وكبار التابعين . يقول الله تعالى :

(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

لقد كمل الدين ، فكفانا الله كل ابتداء ، وإذا كان الدين كاملاً فما علينا إلا الاتباع أما طريقة الاتباع فقد حددها الله في الآية الكريمة التي سبق ذكرها ، والطريقة إذن أن نتبع الآيات المحكمات في فهم ووعي وتأيد ، وهي ليست مثار جدل ولا خصومة ، وليست مجال نزاع يستخدم أو أهواء تنور ، وأن نؤمن بالمتشابه كما ورد ، وألا نتبعه متأولين .

فإن تتبع المتشابه ، إنما ينشأ عن القلوب التي تلونت بالزيغ والانحراف وهي التي تتبعه ابتغاء الفتنة وتتبعه لتأويله ، وتأويله إنما يعلمه الله .

ولكن ما هو هذا المتشابه ؟ :

لقد اختلف فيه أئمتنا ولا نريد أن نتعرض لهذا الاختلاف وإنما نريد أن نقول ، في اطمئنان وثقة :

إن المسائل التي نهى الرسول عليه الصلاة والسلام عن الخوض فيها والمسائل التي كان الاتجاه العام في عهد الخلفاء الراشدين ينفر من الخوض فيها هي من المتشابه ، فالمتشابه إذن ، هو ما تفر منه الروح العامة للدين الإسلامي في عهده الأول : عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وخلفائه الراشدين وتتحرج من الخوض فيه . مثل ماذا ؟

أما أولى مسائل المتشابه التي نريد أن نتحدث - بتوفيق الله تعالى - عن شيء من تاريخها فهي

مسألة القدر .

لقد شغلت مسألة القدر ، أو الجبر والاختيار ، أو أفعال العباد ، عقول الإنسانية منذ أن كان الدين ، أى منذ ابتداء تاريخ الإنسان على ظهر الكرة الأرضية .
 وإذا أثرت مسألة القدر في أى وسط كان ، مهما كان قليل العدد فإنها تقسمه إلى قسمين :
 يقول أحدهما بالجبر ، والآخر يقول بالاختيار .

لقد أثارها اليهود في دينهم ففرقت بينهم ، وقال بعضهم بالجبر ، وقال الآخرون بالاختيار .
 وأثرت في الديانة النصرانية على مجرى التاريخ فكان النزاع والجدل وكان التحيز لرأى والتعصب له ، وانقسم رجال المسيحية إلى فريقين مختصمان ، وأراد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . أن يتلافى انشقاق الأمة بسبب إثارة هذه المشكلة فكان ينهى دائماً عن إثارتها وعن الجدال فيها ، روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : « خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم ، وهم يتراجعون في القدر ، فخرج مغضباً حتى وقف عليهم ، فقال : يا قوم : بهذا ضلت الأمم قبلكم ، باختلافهم على أنبيائهم ، وضرهم الكتاب بعضه ببعض ، وإن القرآن الكريم لم يتزل لتضربوا بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضاً ، ما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه فآمنوا به » .

وعن أبي هريرة « قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع في القدر فغضب حتى احمر وجهه ، ثم قال :
 أيها أمرم ، أم بهذا أرسلت إليكم إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر عزمتم عليكم ألا تنازعوا » .

واتخذ رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، موقفاً حاسماً حازماً بالنسبة لمنع الخلاف في هذه المسألة أوحى مجرد إثارتها .

ومضى رسول الله ﷺ راضياً مرضياً ، وهو لا يسمح حتى النفس الأخير من حياته الشريفة ، بأن تثار هذه المسألة .

ولم تثر هذه المسألة في عهد سيدنا أبي بكر لانشغال المسلمين بتوطيد دعائم الأمة الإسلامية منصرفين بذلك عن العبث في دين الله .

وكانت درة سيدنا عمر كفيلة برد كل من تحدته نفسه بإثارة هذه المشكلة إلى جادة الصواب .
 ومسألة القدر إذن : من التشابه ، إنها من أهم مسائل التشابه ، وهى فضلاً عن ذلك عصية على الحل . إنها ليست قابلة للحل ، وهى ليست قابلة للحل سواء أثرت في الشرق أو في الغرب ، وسواء أثرت في القديم أو في الحديث أو أثرت في البادية أو في الحضر ، إنها مفرقة بين الباحثين

فيها ، ومهما طال الجدل بينهم فلن ينتهوا إلى نتيجة ، ومن أجل ذلك كانت الروح الإسلامية العامة تحرم الخوض فيها .

ومع ذلك فقد بدأت هذه المشكلة تتسلل شيئاً فشيئاً ، إلى المجتمع الإسلامي حتى لقد احتلت يوماً ما مركز الصدارة في الفكر الإسلامي النظري .

ولقد مهدت السياسة أولاً لهذا التسلل وكانت السياسة أول عامل من عوامل إفساد التفكير النظري الديني في المجتمع الإسلامي السليم .

كتب معاوية بن أبي سفيان - بعد أن تولى الملك - إلى المغيرة بن شعبة يطلب منه أن يكتب إليه الحديث الذي كان يقوله صلوات الله وسلامه عليه أحياناً ، وهو على المنبر . فكتب إليه المغيرة أن رسول الله ﷺ كان يقول : في دبر كل صلاة إذا سلم :

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ، ولا راد لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجند منك الجند » .
وأخذ معاوية يذيع هذا الحديث الشريف من على المنابر مؤمناً بأنه من عوامل توطيد مركزه في الأمة .

هذا الاستعمال السياسي للأقوال الشريفة أثار بعض الضمائر التي لم تطمئن إلى هذه الصورة التي اعتبروها استخداماً للدين ، والتي لم يروا فيها مظهراً للخضوع والانقياد له ، فهبوا يعارضون فكرة الجبر التي أخذ معاوية يبشر بها مستنداً إلى هذا الحديث الشريف .

ولسنا الآن بصدد التاريخ الكامل لهذه المشكلة ولقد بينا الآن على الأقل أمرين :

أحدهما : أن هذه المشكلة من المتشابهة . لأن الرسول ﷺ نهى عن الخوض فيها .

ثانيهما : أن السياسة هي التي بدأت بإدخال هذه المشكلة في البيئة الإسلامية .

أما النتيجة التي نريد أن نصل إليها من وراء كل ذلك فهي : أن البحث في هذه المسألة :

يجب أن ينتزع كلية من محيط الفكر الإسلامي ، وأن تنتزع المسألة مما يسمونه علم الكلام ، فإذا ما فعلنا

ذلك ، فإننا نكون قد أزلنا سبباً هاماً من الأسباب التي تفرق بين المسلمين بسبب الخلاف في

العقيدة ، ونكون بذلك قد أسهمنا بقسط وافر في سبيل التوحيد . .

وبالله التوفيق . .

في مشكلة الصفات

يقول الله تعالى : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون)

ويقول سبحانه (ليس كمثله شيء)

ويقول ابن عبد البر المتوفى سنة ٤٦٣ هـ مستتجاً ومرشداً .

« إن الله ليس كمثله شيء ، فكيف يدرك بقياس أو بإنعام نظر؟ أمّا حكماء المصريين

القدماء ، فإنهم يقولون في حكمة حكيمة « محال على من يفنى أن يكشف النقاب الذي تنقب به

من لا يفنى » ومن يفنى : هو الإنسان .

ومن لا يفنى هو الله الباقي :

وسواء نظرنا إلى التراث الديني الصحيح من قرآن أو سنة . أو نظرنا إلى أصحاب الآراء

السليمة التي فهمت الأوضاع الدينية فهماً ينسجم مع الروح الصحيحة للتدين ، فإننا نجد أن

الاتجاه العام في ذلك كله يتعد بالإنسان ابتعاداً تاماً عن أن يقول في الله سبحانه - ذاتاً

وصفات - برأيه « تفكروا في آلاء الله ، ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا » .

إن هذا الأثر يرسم النهج السليم ويعبر عما يجب أن يكون عليه الإنسان إذا أراد النجاة وابتغى

السلامة .

(١) وما من شك في أن البحث في الذات والصفات الإلهية ، من ناحية الصلة بينهما : توحيداً

أو تغايراً والبحث في الصفات الموهمة للتشبيه ، نفيّاً أو تأويلاً إنما هو تهجم من الإنسان على مقام

لا يرقى إليه وهم متوهم ، ولا خيال متخيل ، وإنه لحق : إن كل ما خطر ببالك فالله بخلاف

ذلك .

وقد كان من الطبيعي : أن يقدر الباحثون أنفسهم باعتبارهم من البشر حق قدرها ، وأن

يقدروا الله حق قدره .

ولو سار الأمر على هذا النسق لما تطاول البشر إلى مقام الله ، ولما تجاوزوا حدودهم وبالتالي لما

كان هناك اختلاف وتنازع وافتراق في موضوع الصفات الإلهية .

ولكن بعض الباحثين لم يلتزموا حدودهم كأفراد من البشر وغيرهم عقلهم وخدمهم

شيطانهم : فحاولوا بعقولهم على الله ما لم يتزل به سلطاناً ، فكانت المشكلة الثانية في علم الكلام -

مشكلة الصفات - التي أثارها الجدل والخصومة والفرقة بين المسلمين ، جعلتهم فرقاً تتنازع

وتتخاصم ، ويرمى بعضها بعضاً بالانحراف والضلال .

(ب) ونشأت المشكلة حينما بدأ الباحثون يتعرضون للآيات التي وردت في القرآن الكريم والتي توهم التشبيه ، كاليد والوجه والاستواء ، أو التي وردت في الأحاديث كالتزول : والصورة ، والأصابع .

بدأت المشكلة حينما تعرض بعض الباحثين لهذه الألفاظ وأمثالها تأويلاً لها أو نفيًا لمعناها أو تفسيراً أو شرحاً .

ومنذ أن بدأ الحديث فيها بدأ الجدل حولها والتزاع ، واستمر خلال العصور عسراً تلو عصر ، ولا يزال للآن يثار الجدل بين أنصار الإمام الأشعري وأنصار الإمام ابن تيمية . وكان التزاع حول موضوع الصفات وصلتها بالذات على وجه العموم يسير في هدوء أحياناً وفي عنف أحياناً أخرى .

وقد تولد عنه كثير من المشاكل الدامية ، كمشكلة خلق القرآن ، والمشاكل المبليلة للأفكار والخواطر كمشكلة « الصلاح والأصلح » وجدت هذه المشاكل وكثرت وتعددت كدليل واضح على عجز العقل البشري تجاه العظمة اللانهائية للإلهية .

ومع الإخفاق المتتابع في البحث في هذا الموضوع منذ الآماد المتطاولة ، فإن البشرية لم ترعو ولم تعظ ولا تزال مستمرة في البحث تنحبط فيه وتتنازع وتتجادل وتختصم .

(جـ) والحكمة كل الحكمة إذن ، إنما هي في موقف سلفنا الصالح رضوان الله عليهم - فقد هدتهم نزعتهم الدينية السليمة إلى الموقف السليم فـ « قدروا الله حق قدره » وقدروا أنفسهم حق قدرها ، فسلموا من البلبلة ، والاضطراب ، وسلموا من التنازع والاختلاف ، وكانوا فرقة واحدة .

لقد اتخذوا مبدأً أساسياً : وقاعدة لامراء فيها ولا شك هي قوله تعالى (ليس كمثله شيء) وهذه الآية تسف كل تشبيه نفساً مطلقاً ، فاحترز سلفنا الصالح عن التشبيه حتى لقد قالوا : من حرك يده عند قراءة قوله تعالى :

(خَلَقْتُ يَدَيَّ) أو أشار بأصبعه عند رواية الحديث الشريف .

« قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن . وجب قطع يده وقطع أصبعه . » احترز السلف عن التشبيه ، ولكنهم احترزوا عن التعطيل أيضاً ، فهم يثبتون لله اتباعاً للقرآن - الإرادة - والعلم - والصفات الكريمة التي ورد بها القرآن الكريم .

والموقف الذي يقفه من أراد متابعة السلف الصالح إذن ، تجاه كلمات الصورة واليد ،

والتزول ، إنما هو الإيمان بها مع التنزيه لله تعالى عن الجسمية وتوابعها وليس معنى ذلك أن هذه الألفاظ معطلة عن المعنى ، بل لها معنى يليق بجلال الله وعظمته ومما ليس بجسم ، ولا عرض في جسم .

وأن يؤمن بأن ما وصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ فهو كما وصفه ، وحق بالمعنى الذى أراده وعلى الوجه الذى قاله .
والأ يحاول لها تفسيراً ولا تأويلاً .

وشعار السلف معروف فى أمثال هذه الكلمات إنه «أمروها كما جاءت»
وكانوا يذكرون فى هذه الظروف الآية القرآنية الكريمة . (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب) ولا مناص ، لمن يريد أن يحترز عن الزيغ من أن يمتنع عن التأويل والتفسير وأن يمر بهذه الكلمات كما جاءت .

ويلخص الإمام الرازى فى كتابه «أساس التقديس» المذهب السلفى فى كلمات موجزة دقيقة كل الدقة فيقول : إن هذه المتشابهات يجب القطع فيها بأن مراد الله تعالى فيها شىء غير ظواهرها ثم يجب تفويض معناها إلى الله تعالى ولا يجوز الخوض فى تفسيرها .

هذا هو مذهب السلف فى الصفات ، وهو مذهب لا يثير جدلاً ولا خصومة ، وليس من طبيعته ذلك ، إنه مذهب العبودية الصحيحة .

وهو المذهب الذى يتمذهب به كل من عنده نزعة التدين السليمة . وهو مذهب الإمام مالك ، والإمام الشافعى ، والإمام أحمد بن حنبل والسلف الصالح رضى الله عنهم .
ومن الطبيعى أن يكون مذهب الفرقة الناجية .

ويجب على كل المسلمين الفاقهين لدينهم ، أن ينشروه فى جميع أنحاء المملكة الإسلامية فهو أمانة فى عنقهم ، وهو رسالة يجب عليهم نشرها منعاً للحريرة والاضطراب عند الأفراد ، ومنعاً للاختلاف والتنازع بين الجماعات ، ونشراً للإسلام وتوحيداً للكلمة بين الأفراد والجماعات الإسلامية ، ويجب أن يتزرع بحث الصفات كلية من محيط الفكر الإسلامى ، وأن تتزرع المسألة مما يسمونه علم الكلام ، فإذا فعلنا ذلك فإننا نكون قد أزلنا سبباً آخر هاماً من الأسباب التى تفرق المسلمين بسبب الاختلاف فى العقيدة ، ونكون بذلك قد أسهمنا بقسط وافر فى سبيل التوحيد .

في روح الإنسان ومعنوياته هي ميدان التحدى الحقيقى فما نصيب العقيدة الدينية في بناء هذا الجانب

معنى المادية :

أن يتجه الإنسان إلى ما هو مادي فقط ، يقف عنده ، من جاه أو مال ، أو ولد ، أو متاع آخر ، من متع الدنيا وهؤلاء الماديون لا يتورعون عن ارتكاب كل سبيل ، ولو كانت محرمة أو مزعجة ، في سبيل تحقيق ما يريدون . ومن هنا تركبهم الشقاوة ، ويسيطر عليهم الهم ، ويضحون في سبيل آمالهم بكل شيء .

ويحرم الإسلام المادية الطاغية ، ويحارب الماديين المغالين ، لا تحرفهم عن السلوك الإنساني المهذب ، وغفلتهم عن المثل العليا . ويصفهم سبحانه بقوله : (الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) لشقاوتهم بما سعوا إليه .

ومعنى الروحية :

إدراك المعاني الإنسانية الفاضلة الرفيعة وآثارها على القيم المادية وحدها ، والإسلام وسط بين المادية الطاغية ، والروحية المذلة القاسية ، فهو يطلب تحقيق المادية العادلة والروحية المهذبة ، مع إيثار هذه على ثلاث ، إيثار لما هو خير وأبقى (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مرداً) .

ويقول سبحانه : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً) فالجانب الدائم والباقي في جانب الروحية الفاضلة من أعمال البر وصالح الأعمال ، والوقوف مع الحق والخير .

والإنسان مفطور على حب الجانب المادي (زُيِّنَ للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المنقطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) .

ويشفع ذلك مباشرة بعد ذلك بالالتجاء الآخر والذي هو المحك الحقيقى لصدى الإيمان وقوته (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد . الذين يقولون ربنا إنا آتينا فاعفر لنا ذنوبنا وقتنا

عذاب النار ، الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار) .
 فالإنسان ومعنوياته والفضائل الإنسانية هي ميدان التحدى الحقيقى فى ميدان الاختيار .
 والإسلام وإن عُنى بالجانبيين - كما ذكرنا - فقد فضل الجانب المعنوى والإنسانى .

فى ماذا عن ظاهرة الإلحاد التى بدأت تزحف إلى العديد من الأوساط العلمية ؟

كيف نحد من زحفها الحثيث ؟

حينما رحل المستعمر عن البلاد الإسلامية التى احتلها ترك ظله ووجوده وراءه فى صورة :
 موجهين تربوا على مائدته ، ودانوا بما يدين وحملوا رسالته من بعده . . . وفى صورة كتب ملحدة ،
 تقوض كل ما بقى من الشريعة الإسلامية على يد المستعمر أو صنائعه من بعده ، وأحياناً يكون
 خطر من يتسبون إلى الإسلام أشد وأنكى على الإسلام من أعداء الإسلام .
 وحين ازدوجت مناهج التعليم عندنا طغت المناهج الوافدة فى الثقافة الأصيلة فعم الإلحاد ،
 وطفى الوافد على الأصيل وحط من قدره مما جعل من موازين وقيم ليصرف الناس عنه ؛
 وحين ولدت مبادئ هدامة ، من شيوعية ملحدة تنكر وجود الله وتهزأ بالدين ، ورجاله ،
 ومن وجودية هدامة تدعو إلى الفوضى والإباحية ، وتخلع ريقة الدين .
 وحين خفّت التعاليم الإسلامية بتقليصها من الدراسة وتعطيلها عن التنفيذ وإبعادها عن مجال
 الحكم والتوجيه ، استشرى الإلحاد بكل الوسائل ليحيا ويستشرى ، ويتشتر انتشار النار فى
 الهشيم .

فلا بد من التعاون بين الأفراد والجماعات والأسر والبيوت ، ورجال الدعوة والحكومة ووسائل
 الإعلام والعناية بتدريس الدين ، وتمكين الدعاة وإعدادهم الإعداد الكافى ، والدولة قدوة فى
 ذلك لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

وحيثئذ سشرق شمس الهداية من جديد ، ويخفى الإلحاد مع الظلام ، ويفرح المؤمنون بنصر
 الله ، قال ﷺ .

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك
 أضعف الإيمان » .

في الروح

إن الموت ليس انفصالا كلياً بين الروح والجسد ، فالآثار الدينية ترشد إلى أن القبر - وهو مقر الجسد بعد الموت - إما أن يكون روضة من رياض الجنة وإما أن يكون حفرة من حفر النار ، وترشد هذه الآثار إلى أن الروح تبقى بعد الموت وتسمع السلام عليها ، وتعرف الشخص الذي يزور قبر صاحبها .

أما فيما يتعلق بمقرها فإنه يختلف باختلاف عملها من خير ومن شر ، ويختلف أيضاً بسبب اختلاف درجة الخيرية شرفاً وأشرف ، أما أين هذا المقر فإن أين يستفهم بها عن المكان والأرواح لامادية فهي إذن لا تتقيد بمكان ، أما أن الجسد يتحلل ويذهب فإن الله سبحانه وتعالى يحدثنا ذاكراً السؤال والجواب يقول : (وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) ويقول سبحانه (أفبعينا بالخلق الأول ؟) أي أفعجزنا عن الإيجاد من العدم حتى نتصور أن يعجز عن الإعادة مع أنها أسهل من الخلق الأول فالبعث إعادة الخلق من جديد وليس ذلك على الله ببعيد ، يقول سبحانه : (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ) .

في الروح من أسرار الله تعالى

لقد حاول الفلاسفة القدماء وحاول الفلاسفة المحدثون البحث في الروح ، ولقد حاول أيضاً علماء الكلام من كل الأديان البحث فيها ، ولكن هؤلاء وأولئك لم يتفقوا في شأنها على رأى ولم يسلم واحد منهم للآخر حجته أو دليله ، وبقيت الآية القرآنية حقيقة لا مراء فيها (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) .

أي الروح سر من أسرار الله عز وجل ، أمر رسول الله ﷺ ، بالألا يتحدث عن كنه حقيقته ، وما دام الأمر كذلك فلا عبرة بالسؤال عنه .

ورحم الله امرأً وقف عند أمر ربه تعالى ، فلم يتجاوزهُ إلى ما لا ينبغي له : فإن الروح لم يطلع عليها أحد حتى يعرف من أي شيء تكونت ، وكلام الفلاسفة وغيرهم في شأن الروح ، لا يعضده دليل علمي ، ولا دليل نقل ، لهذا نرى أنه لا ينبغي لأحد أن يتجاوز قدر نفسه فيبحث في

موضوع لا تصل إلى سره العقول وكل ما يمكن أن يقال في أمر الروح ، أنها سر الحياة ، وبدونها لا تكون حياة . .

في زيارة القبور والأضرحة

زيارة القبور عامة والأضرحة خاصة مندوبة للاتعاظ وتذكر الآخرة وحث النفس على التأسى بالسابقين من الصالحين آل بيت الرسول ﷺ ، وينبغي للزائر الاشتغال بالدعاء والتضرغ إلى الله سبحانه والاعتبار بالموت وقراءة القرآن والدعاء إلى الله أن يجعل ثوابه للميت ، فإن ذلك ينفعه على الأصح إن شاء الله .

ومما ورد أن يقول الزائر عند رؤية القبور « اللهم رب الأرواح الباقية ، والأجسام البالية ، والشعور المتمزقة ، والجلود المتقطعة ، والعظام النخرة التي خرجت من الدنيا وهي بك مؤمنة أنزل عليها روحاً منك وسلاماً مني . » .

ومما ورد أيضاً : أن يقول : السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . نسأل الله لنا ولكم العافية ، وينبغي أن تكون الزيارة مطابقة لأحكام الشريعة فلا يقبل حجراً أو عتبة أو خشباً ويكون سؤاله وطلبه من الله سبحانه وتعالى وعلى الله القبول .

في اكتشافات العلم الحديث ووجود الله

إن الأدلة على وجود الله سبحانه وتعالى من العقل والنقل أكثر من أن تعد أو تحصى ولا يمارى في ذلك إلا من لا يحس بوجود نفسه ، لأن وجوده على قيد الحياة دليل قاطع على وجود الله سبحانه ، فمن الذي أوجده وأعطاه القدرة على الاكتشاف ووهبه العلم ، قال تعالى ، (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) ويقول الرسول ﷺ : « من عرف نفسه عرف ربه » .

العربي الجاهل في البادية حينما سُئل عن الله فقال بفطرته ، البعرة تدل على البعير وأثر السير يدل على السير ، فأرض ذات فجاج ، وسماء ذات أبراج ، أفلا يدل ذلك على اللطيف الخبير . والأجدر بهؤلاء الذين وصلوا إلى الاكتشافات الحديثة وصعدوا إلى القمر أن يزدادوا إيماناً و يقيناً بوجود الله ، لأنهم قد أنفقوا الكثير من المال والوقت والبحث والدرس على أن يصلوا إلى أقرب كوكب من الكواكب إلى الأرض ، وهو واحد من المجموعة الشمسية التي هي إحدى الملايين من المجموعات التي تسبح في الفضاء بنظام وإبداع واتفاق لا يصطدم واحد منها بالآخر :

(لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) ، فكان ينبغي بعد هذه الاكتشافات أن تخر الجباه ساجدة أمام عظمة الله ، قائلة « تبارك الله أحسن الخالقين » . والإسلام يحث على التزود من العلم والمعرفة وأول آية من كتابه وهو القرآن تنزلت على النبي ﷺ تدعو إلى ذلك (اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) ونفى الله المساواة بين من يعلمون ومن لا يعلمون فقال : (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وأمر نبيه بأن يدعوه بقوله : (وقل رب زدني علماً) .

ودعانا القرآن إلى النظر في المخلوقات فقال : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت) وقال : (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) وسخر لنا الشمس والقمر لنتنفع بها وسائر النجوم ، ومن وسائل الانتفاع أن نكتشف ما في النجوم من أسرار ، قال تعالى : (وسخر لكم الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) وهبوط الإنسان على القمر ليس إلا اكتشافاً لهذا الكوكب الذي أخبر الله سبحانه وتعالى بأنه مسخر لنا لنتنفع بما فيه ، وليس في القرآن ما ينافي ذلك أو يستبعده ..

في العقائد التي انحرفت سبب الإلحاد

دين الله نزل صافياً من السماء منذ آدم ، ولكن أهواء البشر غيرت على مر الزمن وبدلت وانحرفت بالكثير منه إلى طريق غير مستقيم يتعارض مع العقل ، ولا ينسجم مع المنطق .

ولعل الذين يلحدون ، بسبب العقائد التي انحرفت ، لهم بعض العذر ، فإذا قلت لإنسان : إن التوراة تروى أن الله نزل إلى الأرض ، كائناً بشرياً وسار في مزرعة سيدنا إبراهيم ، دون استئذان صاحب المزرعة ، فلما رأى إبراهيم هذا الغريب يسير في المزرعة ، في حرية وعدم مبالاة ، تارك بريائه ، فحصلت بينها مشادة والتحا في معركة حامية ، أوشك إبراهيم فيها أن يصرع إلهه ، وأن يطرحه أرضاً لولا أن الإله المشفق على نفسه من السقوط والهزيمة النكراء ، صارع إبراهيم بحقيقة أمره فأطلق سراحه بعد أن أخذ عليه اليهود والمواثيق لبني جنسه .

إذا قلت لإنسان هذا ، فليس من الغريب أن يلحد في التوراة ، وله العذر إذا ما شك في الدين الذي يقوم على هذا الكتاب .

وإن أى إنسان مميز تقول له عن كائن معين بالذات ولد فى يوم محدد وفى شهر معين ، ونشأ كما ينشأ الآخرون . . إذا قلت لإنسان مميز إن هذا الكائن مولود غير مخلوق وإنه أزل ، وإنه واحد ، ومع ذلك فهو ثلاثة فى الوقت الذى هو فيه واحد ، وواحد فى الوقت الذى هو فيه ثلاثة ، إذا قلت لإنسان ذلك فشك وألحد فى دينه فله العذر .

وكلمة القديس أوغسطين : « إني أومن بهذا لأنه غير معقول » غير مستساغة لدى أصحاب المنطق والتفكير السليم .

ولكن من البدهاة أن الشك فى دين معين لا يقتضى الشك فى جميع الأديان وإذا كان البطلان قد ظهر ، بالنسبة لدين خاص فليس معنى ذلك أن البطلان يتعدى ذلك الدين إلى غيره . . .

فى ذكر أنبياء الله فى الكتاب

لا عجب أن يذكر فى الكنائس أنبياء الله : إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، فإن يعقوب هو إسرائيل ، وعلى بنى إسرائيل نزل الوحي مدة طويلة ، وكثرت فيهم الأنبياء فإسحق بن إبراهيم جدهم ويعقوب أبوهم ومنهم موسى وعيسى وزكريا ويحيى . . ونحن مؤمنون بهم وبكل الأنبياء ولا يمنعنا كونهم من بنى إسرائيل ألا نؤمن بهم حسداً أو تحزباً وتفريقاً بين أنبياء الله بل نحن مؤمنون بهم وبكل من علمنا ومن لم نعلم من الأنبياء ، ودينهم الذى جاءوا به وهو عبادة الله وحده والتصديق بكل حق عنده . والله يجب أن يؤمن العالمون بكل أنبيائه كذلك . .

فى عبادة الأوثان

عبادة الأوثان تعنى أن يتوجه العابد إلى الوثن بالعبادة ، ويعتقد فيه أنه مجال لحلول الإله وأنه يضر وينفع ، ويجازى كلا من أتباعه بما يستحق .

وإذا كان الله تعالى ذكر قول عباد الأوثان : (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) فإنه قد بين أنهم كانوا يعبدونهم ، والعبادة مطلق الطاعة والخضوع لمن بيده الضر والنفع والتصرف الكامل فى الإنسان وما يحيط به .

وليس من ذلك تقبيل الحجر الأسود والطواف بالكعبة لأن فى هذين الفعلين عبادة الله بأداء فعل ما جعله الله تعالى مظهر العبادة المقبولة .

وليس في هذا الفعل عبادة لحجر أو تعظيم لحجر - وإنما فيه عبادة لله وحده وإفراد له بالطاعة والخضوع .

إن عبادة الأصنام والأوثان تعظيم لغير ما عظمه الله ، وإشراك لله يجعل بعض المخلوقات لها من مظاهر الألوهية ماله - وانصراف عن التسليم الكامل لله بالوقوف عند بعض مخلوقاته وتعظيمها تعظيمًا لا يليق إلا به سبحانه .

ولو اعتقد إنسان أنه بتقبيله الحجر يعبد الحجر فهو كافر وكذلك الأمر في الطواف بالبيت . إن على الحاج أن يستشعر المطلوب هنا وهو الاستسلام الكامل لله ، وتنفيذ كل ما أمر به وخصه عليه . وإن كلمة سيدنا عمر معروفة مشهورة فيما يتعلق بالحجر حيث قال : إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أن رسول الله قبلك ما قبلتك ، وهذه الكلمة التي يقر بها جميع المسلمين تنفي كل شبهات الوثنية .

إن الحاج يبدأ الطواف بيسم الله والله أكبر . . .

في القوة المادية وسيلة لإرضاء الله تعالى

لا يلزم من امتلاك القوى المادية تأييد الله وتسديده ، فكما تكون القوة والنعم المادية نعمة لمن شكر واستخدمها في الخير ، تكون نقمة لمن كفر واستخدمها في الشر . عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : إن الله يعلى للظالم - أى يمهله ويؤخر مؤاخذته ويمد له في جبال الأمل ، حتى إذا أخذه لم يفلته ، ثم تلا قوله تعالى : (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظلمة إن أخذة أليم شديد) ولقد جرت العادة بأن الأنبياء والأولياء والمؤمنين الصادقين أكثر الناس صبرًا على البلاء ومقاومة لطغيان الكفر والفساد « فهذا رسول الله ﷺ يحكى عن نبي من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، ضربه قومه فأدموه ، وهو يمسح الدم عن وجهه وهو يقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » وهو بذلك إنما يصور بعض ما جرى له مع قومه .

وبالصبر والعمل الجاد الدائب والتوكل على الله تعالى يتحول الضعف إلى قوة في الأمة الإسلامية ويتحقق وعد الله للمؤمنين : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) . . (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) .

والمقصود أن القوة المادية تكون وسيلة إلى مرضاة الله إذا استندت إلى إيمان صحيح ودين قويم -- أما إذا لم تستند إلى شيء من ذلك فهي وسيلة لاختبار المؤمنين بالصبر في مواجهتها والعمل على الوصول إلى مستواها والسير بمبادئهم رغماً عنها ، ومحاولة تسييرها على أساس هذه المبادئ . .

في الحلف بغير الله

وروى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفاً ، فليحلف بالله أو ليصمت » .

وقال ﷺ : « كل يمين يحلف بها دون الله شرك » .

من هذا نعلم أن الحلف لا يكون إلا بالله ، ومثل الحلف بالله الحلف بالقرآن ، لأن القرآن الكريم كلام الله ، وكلام الله صفة من صفاته فهو كالحلف بالله سواء بسواء وأما الإيجاب في الحلف فمنوع شرعاً إلا إذا كان لغرض شريف مثل التثبيت من صحة قول الحالف في موضوع يتصل بمصلحة المسلمين ، وإلا فالإيجاب على الحلف الباطل حرام ، والإكراه على الحلف لا يضر الحالف في صحته إذا تحققت شروط الإكراه ، وكان الحالف بريئاً وعند الإكراه بغير حق يرفع الحالف أمر من أكرهه إلى القضاء لحفظ دينه وكرامته وإذا ترتب على الحلف أضرار مادية يرفع الحالف أمره إلى القضاء .

والله أعلم

في الجبر والاختيار

هذه مسألة خاض فيها العلماء منذ زمن طويل وذهبوا فيها مذاهب .

١ - مذهب الجبرية الذي يرى أن الإنسان لا كسب له ولا اختيار في أفعاله وأنه كريحة معلقة في الهواء تسيرها الرياح كيف شاءت .

٢ - مذهب المعتزلة الذي يرى أن الإنسان إنما يخلق أفعاله الاختيارية ويوجدتها بقدرته وإرادته التي خلقها الله فيه ولا دخل للقضاء والقدر في أفعاله .

٣ - ومذهب أهل السنة الذي يرى أن الله هو الذى يخلق أفعال العبد والعبد له كسب واختيار في أفعاله .

وهذا هو الذى ارتضاه جمهور المسلمين وهو أن العبد مخير فى أفعاله لأنه هو الذى يرجح ويختار حسب ما أودعه الله فيه من عقل يميز الخير من الشر ، وأنه هو الذى يعزم ويصمم على الفعل ، وبعد ذلك يكون خلق الفعل من الله سبحانه وتعالى كما قال فى كتابه العزيز . (والله خلقكم وما تعملون) .

فى الإسلام دين الفطرة

الإسلام دين الفطرة السليمة ، وليس فيه كهنوت ولا رجال دين يملكون أن يعفروا الخطايا ويعفوا عن الذنوب .

وهذه الأمور هى من العلاقة بين العبد وربّه ، فمن التزم أوامر الله واجتنب نواهيه دخل الجنة بفضل الله وإحسانه . قال تعالى :

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نُزُلًا) .

فجعل الجنة جزاءً للإيمان والعمل الصالح . وليس من الإسلام أن يبيع الإنسان نفسه لأحد فالمسلم حر عزيز لا يباع ولا يشتري ، ولا يفتى أحد عن أحد شيئاً عند الله سبحانه وتعالى : ولقد قال الرسول ﷺ لأقربائه موضحاً لهم هذه الحقيقة مرشداً لهم إلى الطريق القويم ومحذراً لهم من الاتكال على الانتساب إليه دون عمل فقال منادياً أقرب الناس إليه « يا فاطمة بنت محمد اشترى نفسك من الله (أى بالعمل الصالح) لا أغنى عنك من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب عم رسول الله ويا صفية عمّة رسول الله اشتروا أنفسكم من الله (أى بالعمل الصالح) لا أغنى عنكم من الله شيئاً .

وقال سبحانه وتعالى (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون)

من كل ذلك نعلم أن علاقة المسلم برجال الدين هى علاقة إرشاد وهداية وقدوة ومثل : وليست علاقة استدلال واستبعاد .

ومن يدعو الناس إلى أن يبيعوا أنفسهم نظير أن يدخلوا الجنة فليس من رجال الدين ولا من المتأدين بأدابه أو المتمسكين بتعاليمه ، ويجب أن يحذره الناس ولا يئخدوا به .

في الخلافة

إن الخلافة في الإسلام لا تورث ، إنها ليست ملكاً عضواً ، والمقطوع به من الدين إن الأمة يجب عليها أن تختار للخلافة أكملها فهماً للدين وتقوى الله وأمثلها حكمة واتزاناً وحزماً وعدلاً . . . ونظام ميراث الملك ابناً عن أب عن جد أو نظام كون الملك في أسرة معينة لا يتعداها نظام لا يعرفه الإسلام .

لم يوصي سيدنا أبو بكر بالخلافة لأحد أبنائه ، ولم يأمر بها سيدنا عمر لأحد من أبنائه برغم أن ابنه عبد الله بن عمر رضى الله عنه كان قفة في التقوى والصلاح والفضيلة ولم يوص سيدنا عثمان بالخلافة أن تكون في أسرته وما كان سيدنا علي ، من الجهل بالإسلام وقواعده بحيث يأتي بعمل يخالف روح الإسلام ويخالف قواعده فيأمر أصحابه أن ينتخبوا ابنه الحسن خليفة من بعده وإذا كان هناك أمر فما يعنى الانتخاب إذن ؟ ولم الانتخاب ؟ إن المنطق البسيط يرشد إلى أن سيدنا علي لا يفعل مثل ذلك .

ويأتى التاريخ الصحيح وكتب السير والأخبار الثابتة فتؤيد ما أبداه المنطق وترشد إلى أن سيدنا علياً ما كان يرى الخلافة كسرية متوارثة وإنما كان يراها انتخاباً من أول الأمر . . . والله أعلم

في الشيعة

إن الأغلبية الغالبة الآن من الشيعة توجد في إيران وفي العراق وفي اليمن ، وشيعة إيران والعراق من الشيعة الاثنا عشرية ، أما شيعة اليمن فإنهم من الشيعة الزيدية وهذه الأقطار الذى ذكرناها تضم ملايين الشيعة .

بيد أن هناك آلافاً من الشيعة العلويين في لبنان ، ومجموعة ضخمة من الشيعة (طائفة البهرة) في الهند ، وطائفة ضخمة أخرى من الشيعة الإسماعيلية في الهند وأفريقيا .

أما تسميتهم بالشيعة فلأنهم شايعوا علياً رضى الله عنه في خلافه مع معاوية رضى الله عنه ، ومع الآخرين من الصحابة ، فكانوا شيعة على أى مناصريه ومؤيديه على كل من خصمه . أما الفروق التى بين الشيعة وبين غيرهم فهى فروق في الفقه وفي العقيدة وأبرز مظاهر الخلاف بين أهل السنة والشيعة في الفقه . أمران :

أحدهما : زواج المتعة وهو أن يتفق الرجل مع المرأة على أن يستمتع بها فترة من الزمن في مقابل مبلغ من المال ، إذ يعتبر الشيعة ذلك حلالاً ويعتبره أهل السنة حراماً .
والأمر الثاني : في الاختلاف الفقهي حول الجمع بين العصر والظهر ، وبين المغرب . يأخذ به الشيعة فيجمعون ولا يفعل ذلك أهل السنة إلا في حالات معينة ، أما الاختلاف فيما يتعلق بالعقيدة فأبرز مظاهره .

١ - اعتقاد الشيعة في عصمة أئمتهم ، أما أهل السنة فإنهم لا يعتقدون إلا في عصمة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

٢ - اعتقاد الشيعة أن علياً كرم الله وجهه أفضل أصحاب رسول الله ﷺ على الإطلاق ، وأنه كان أحق بالخلافة من سبقه من الخلفاء ، أما أهل السنة فإنهم يكبرون علياً رضي الله عنه ويحترمونه ولكنهم يرتبون الخلفاء في الأفضلية بحسب ترتيب الخلافة أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ، وهؤلاء الأربعة هم أفضل الصحابة عند أهل السنة .

تفصيل الحديث عن الشيعة

أصل الشيعة^(٢٩)

يختلف الناس في أصل « الشيعة » ؛ فيعزوها بعضهم إلى أثر الفرس ، الذين كانوا يقصدون « الملك » ؛ فلما زال ملكهم ، ودخلوا في الإسلام ، ظهر أثر ذلك في موقفهم من « آل البيت » وتقديسهم للأئمة .

ويرى آخرون : أن « الشيعة » تدل في نشأتها لـ « عبد الله بن سبأ » ، الذي كان يهودياً واعتنق الإسلام للتبليغ منه ، والكيد له ؛ فأظهر هذا المذهب ليفرق بين المسلمين ، ويقضى على وحدتهم ، وعزتهم .

(٢٩) من مصادر هذا الفصل : مقالات الإسلاميين للأشعري .

الفرق بين الفرق للبغدادي ، التبصير في الدين للإسفرابني .

الملل والنحل للشهرستاني . مقدمة ابن خلدون ، عثمان ، للدكتور طه حسين ، علي وبنوه ، للدكتور طه حسين ، فجر الإسلام ، للدكتور أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، للدكتور أحمد أمين ، أصل الشيعة وأصولها ، الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، أصول الإمامية ، للدكتور برنارد لويس .

رأى « وهوزن » و « دوزى » :

يقول الدكتور « أحمد أمين » :

وقد ذهب الأستاذ « وهوزن » إلى أن العقيدة « الشيعية » نبتت من « اليهودية » أكثر مما نبتت من « الفارسية » مستدلاً بأن مؤسسها « عبد الله بن سبأ » وهو يهودى .
 ويميل الأستاذ « دوزى » إلى أن أساسها « فارسى » ؛ فالعرب تدين بالحرية ، و « الفرس » يدينون « بالملك » ، وبالوراثة فى البيت المالك ، ولا يعرفون معنى لانتخاب الخليفة ، وقد مات « محمد » ولم يترك ولداً ، فأولى الناس بعده ابن عمه « على بن أبى طالب » ، فن أخذ الخلافة منه « كأبى بكر » و « عمر » و « عثمان » و « الأمويين » فقد اغتصبها من مستحقها ؛ وقد اعتاد « الفرس » أن ينظروا إلى « الملك » نظرة فيها معنى إلهى ، فنظروا هذا النظر نفسه إلى « على » و « ذريته » .
 وقالوا : « إن إطاعة الإمام أول واجب ، وأن إطاعته لله (٣٠) » أهـ .

رأينا فى أصل الشيعة :

ولكننا نرى أن السبب فى نشأة (الشيعة) ، لا يرجع إلى الفرس عند دخولهم فى الإسلام ، ولا يرجع إلى اليهودية ممثلة فى « عبد الله بن سبأ » . وإنما هو أقدم من ذلك ؛ فنواته الأولى ترجع إلى شخصية « على » - رضى الله عنه - من جانب ، وصلته بالرسول - عليه الصلاة والسلام - من جانب آخر .

وتوضيح ذلك : أن صلة « على » بالرسول - عليه الصلاة والسلام - أقدم من الإسلام نفسه .

لم ينس « محمد » - عليه الصلاة والسلام - بعد زواجه « بخديجة » ، رضى الله عنها ، عطف « أبى طالب » عليه ، ورعايته له .

فقد ضم « أبو طالب » الرسول إليه ، وكفله ، بعد وفاة جده « عبد المطلب » وذلك بالرغم من كثرة عياله ، وعدم ثرائه .

وكان من تصرفات المقادير : أن أصابت « قريشاً » أزمة شديدة فتحدث رسول الله ، ﷺ ، مع عمه ، « العباس » وكان من أيسر « بنى هاشم » ، فقال له :

(٣٠) فجر الإسلام للدكتور أحمد أمين ، ص ٣٤٠ .

إن أخاك «أبا طالب» كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله : آخذُ من بنيه رجلاً ، وتأخذُ أنت رجلاً ، فنكُلها عنه .
فقال «العباس» : نعم ، فانطلقا حتى أتيا «أبا طالب» (٣١) .
وانتهى الأمر بينهما وبينه : أن أخذ رسول الله ، ﷺ ، «علياً» فضمه إليه ، وأخذ «العباس» «جعفراً» .

نشأ «علي» مع الرسول ، ﷺ ، منذ نعومة أظفاره ، فتفتحت عيناه - طفلاً - على أكرم مثل للقدوة الحسنة ، ممثلة في الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتفتحت عيناه على أكرم مثل للود المتبادل بين الزوجين الطاهرين ، والحنان الذي يملأ البيت الكريم ، والرحمة التي تفيض من قلب «محمد وخديجة» فيكون من أثرها حمل الكلِّ ، وصلة الرحم ، وقرى الضيف ، والإعانة على نوائب الدهر ، فترك ذلك في نفسه أكرم الأثر .

وأوحى الله إلى الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، «وعلى» - يومئذ - ابن عشرين ، فلم تندس جبهته بالسجود لصنم ، ولم يكن في سن تجترح فيها المعاصي : فاعتنق الإسلام طاهراً .
ولقد أراد - قبل إسلامه - أن يستشير أباه ، وبات ليلته يفكر في الأمر ، فلم يكن يغمض له جفن ، فلما أصبح أعلن في ثقة واطمئنان : أنه أسلم ، وأنه في غير حاجة لرأى «أبي طالب» وقال :

«لقد خلقني الله من غير أن يشاور «أبا طالب» فاحاجني أنا إلى مشاورته لأعبد الله» .
«وكان رسول الله ، ﷺ ، إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة ، وخرج معه «علي ابن أبي طالب» مستخفياً من أبيه «أبي طالب» ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها ، فإذا أمسيا رجعا ، فكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا (٣٢)»
وحين نزلت الآية الكريمة (وأندر عشيرتك الأقربين) دعا «محمد» عشيرته إلى الطعام في بيته ، وحاول أن يحدّثهم ، داعياً إياهم إلى الله ، فقطع عمه «أبو لهب» حديثه واستنفر القوم ليقوموا .

ودعاهم «محمد» في الغداة كرة أخرى ، فلما طعموا قال لهم :
ما أعلم إنساناً في العرب جاء قومه بأفضل مما جشتم : بخير الدنيا والآخرة . وقد أمرني ربي أن ادعوكم إليه ، فأياكم يؤازرنى على هذا الأمر؟ فأعرضوا عنه ، وهما بتركه .

(٣١) سيرة ابن هشام ، ص : ٢٩٣ .

(٣٢) سيرة ابن هشام ، ص : ٣٦٢ .

لكن « عليا » نهض وهو ما يزال صبياً دون الحلم وقال :

أنا يا رسول الله في عونك ، أنا حرب على ما حاربت . فابتسم « بنو هاشم » وقهقه بعضهم ، وجعل نظرهم ينتقل من « أبي طالب » إلى ابنه ، ثم انصرفوا مستهزئين^(٣٣) .

وفي ليلة الهجرة أسر الرسول ﷺ ، إلى « علي » أن يتسجى بُرْدَه الحَضْرَمِيَّ الأخضر ، وأن ينام في فراشه ، وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للنامس^(٣٤) . وآخى رسول الله ، ﷺ ، بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، حين نزلوا المدينة ، ليذهب عنهم وحشة الغربة ، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ، ويشد أزر بعضهم ببعض ، ثم أخذ بيد « علي » بن « أبي طالب » فقال : هذا أخي .

فكان رسول الله ، ﷺ ، و« علي » بن « أبي طالب » رضى الله عنه ، أخوين^(٣٥) . لقد رياه رسول الله ، ﷺ ، صغيراً ، وكان رضى الله عنه ، يعيش في بيته كأحد أبنائه ، وكان أول من أسلم من الذكور ، وآخى رسول الله ، ﷺ ، بينه وبينه ، وزوجه بأحب بناته إليه .

« فاطمة » ، رضى الله عنها .

ثم إن شجاعته الفذة ، وإخلاصه النادر للرسول ، ﷺ ، وتقواه ، وزهده ... كل ذلك مشهور ، لا يحتاج إلى توضيح ، ولذلك يقول الدكتور « طه حسين » بحق : ولقد قام المسلمون بعد وفاة النبي : إن « عليا » كان أقرب الناس إليه ، وكان ربيبه ، وكان خليفته على ودائعه ، وكان أخاه بحكم تلك المؤاخاة ، وكان ختنه ، وأبا عقبه ، وكان صاحب لوائه ، وكان خليفته في أهله ، وكانت منزلته منه بمنزلة « هارون » من « موسى » بنص الحديث عن النبي نفسه .

لو قد قال المسلمون هذا كله ، واختاروا « عليا » بحكم هذا كله للخلافة ، لما أبعدوا ، ولا انحرفوا^(٣٦) .

ولا غرابة ، والأمر كذلك أن : « كان جمع من الصحابة » يرى أن عليا أفضل من « أبي بكر » و« عمر » وغيرهما :

(٣٣) حياة محمد ، للدكتور هيكل ، ص : ١٤٠ .

(٣٤) المصدر نفسه ، ص : ٢١١ .

(٣٥) سيرة (ابن هشام) ، والروض الأنف : ص ١٨ .

(٣٦) عثمان للدكتور « طه حسين » ، ص ١٥٢ .

وذكروا أن ممن كان يرى هذا الرأي « عماراً » و« سلمان الفارسي » و« جابر بن عبد الله » ،
و« العباس » و« بنه » و« أبي بن كعب » و« حذيفة » إلى كثير غيرهم (٣٧) .

ولكن اجتماع الثقيفة انتهى باختيار « أبي بكر » ، رضى الله عنه ، خليفة للمسلمين فامتنع
« على » ، رضى الله عنه ، عن البيعة ، لاعتقاده ، أنه أحق بالخلافة ، والحديث التالى يبين
موقفه .

فى صحيح البخارى : حدثنا « يحيى بن بكير » ... عن « عائشة » ، أن فاطمة - عليها
السلام - بنت النبى ، ﷺ ، أرسلت إلى « أبي بكر » تسأله ميراثها من رسول الله ، ﷺ ، مما
أفاه الله عليه « بالمدينة » و« فدك » وما بقى من خمس خبير ، فقال « أبو بكر » .
إن رسول الله ، ﷺ ، قال :

لا نورث ، ما تركناه صدقة ؛ إنما يأكل آل محمد فى هذا المال ، وإنى والله لا أغير شيئاً من
صدقة رسول الله ، ﷺ ، عن حالها التى كان عليها فى عهد رسول الله ، ﷺ ، ولأعملن فيها
بما عمل به رسول الله ، ﷺ ، فأبى « أبو بكر » أن يدفع إلى « فاطمة » منها شيئاً ، فوجدت
« فاطمة » على « أبي بكر » فى ذلك ، فهجرته ، فلم تكلمه حتى توفيت .

وعاشت بعد النبى ، ﷺ ، ستة أشهر ، فلما توفيت ، دفنها زوجها « على » ليلاً ، لم يؤذن بها
« أبا بكر » وصلى عليها . وكان « لعل » من الناس وجه حياة « فاطمة » فلما توفيت استنكر « على »
وجوه الناس ، فالتمس مصالحة « أبي بكر » ومبايعته . ولم يكن يبايع تلك الأشهر ؛ فأرسل إلى
« أبي بكر » أن اتنا : ولا يأتنا أحد معك . كراهية ليحضر « عمر » ، فقال « عمر » :

لا والله لا تدخل عليهم وحدك . فقال « أبو بكر »

وما عسيتم أن يفعلوا بى ، والله لآتينهم .

فدخل عليهم « أبو بكر » ، فتشهد « على » فقال :

إنا قد عرفنا فضلك ، وما أعطاك الله ، ولم ننفس عليك خيراً ساقه الله إليك ، ولكنك
استبددت علينا الأمر ، وكنا نرى ، لقربتنا من رسول الله ، نصيباً ، حتى فاضت عينا
« أبي بكر » . فلما تكلم « أبو بكر » قال :

والذى نفسى بيده ، لقربة رسول الله ، ﷺ ، أحب إلى أن أصل من قرابى ، وأما الذى
شجر بينى وبينكم من هذه الأموال : فلم آل فيها عن الخير ، ولم أترك أمراً رأيت رسول الله ، ﷺ ،
يصنعه فيها إلا صنعته .

فقال « على » « لأبي بكر » : موعذك العشية للبيعة .

فلما صلى « أبو بكر » الظهر ، رقى المنبر فتشهد ، وذكر شأن « على » ، وتخلفه عن البيعة ، وعذره بالذى اعتذر إليه ، ثم استغفر .

وتشهد « على » فعظم حق « أبي بكر » ، وحديث : أنه لم يحمه على الذى صنع نفاسة على « أبي بكر » ، ولا إنكاراً للذى فضله الله به ، ولكننا كنا نرى لنا فى هذا الأمر نصيباً ، فاستبد علينا ، فوجدنا فى أنفسنا .

فسر بذلك المسلمون ، وقالوا : أصبت . وكان المسلمون إلى « على » قريباً حين راجع الأمر بالمعروف (٣٨) . ١ هـ .

بايع « على » « أبا بكر » فى إخلاص المؤمن الصادق الإيمان . وأخذت حياته تسير فى مجراها الطبيعى : زهد ، وتقوى ، وعلم ، وورع ، واستمر منارة يهتدى بها الخائر ، ومثلاً أعلى يسير على هداه من رغب عن سنن الباطل ، وطمح إلى رضوان الله .

وتوفى « أبو بكر » - رضوان الله عليه - بعد أن عهد بالخلافة إلى « الفاروق » فاجتمعت كلمة المسلمين على « ابن الخطاب » فقادهم جهده إلى مرضاة الله ، وكان « على » فى زمنه ، كما كان فى زمن « أبي بكر » ، المنارة والمثل الأعلى .

وكان كل شىء يرشح « علياً » للخلافة بعد موت « عمر » : قرابته من النبى ، صلى الله عليه وسلم ، وسابقته فى الإسلام ، ومكانته بين المسلمين ، وحسن بلائه فى سبيل الله ، وسيرته التى لم تعرف العوج قط ، وشدته فى الدين ، وفقهه بالكتاب والسنة ، واستقامة رأيه فى كل ما عرض عليه من المشكلات .

ولئن تخرج المسلمون من تقديمه على « أبي بكر » : لأنه كان رفيع المكانة عند النبى ، صلى الله عليه وسلم ، وثانى اثنين فى الغار ، ولأنه خلف « النبى » على الصلاة بالناس .
ولئن تخرج المسلمون من تقديمه على « عمر » ، لمكانة « عمر » أولاً ، ولعهد « أبي بكر » بالخلافة إليه ثانياً .

لقد كان المسلمون يستطيعون أن يختاروا « علياً » للخلافة ، لا يجدون بذلك بأساً ، ولا يقون فيه حرجاً ، « فعمرو » قد رشحه ، ومكانته ترشحه ، ثم هو كان بعد ذلك من قوة العصبية فى

(٣٨) البخارى ، ويجب أن تأخذ هذا الحديث بتحفظ فيما يتعلق بتفاصيله وتعبيراته ، فهو رواية السيدة « عائشة » - رضى الله عنها - وقد يكون فيه ، بطريقة لاشعورية ، بعض ما يفتقر من شأن « على » ، ولكنه صحيح فيما يعرفنا به من امتناع « على » عن البيعة ، ومن تحديد الزمن الذى امتنع فيه . ولهذا أهميته .

العرب عامة ، وفي قريش خاصة ، بالمتزلة التي كان فيها « عبد الرحمن بن عوف » .

فهو قد أصهر إلى « قريش » ، وأصهر إلى « مضر » ، وأصهر إلى « ربيعة » ، وأصهر إلى « اليمانية » ، وكان له بنون من نسائه على اختلاف قبائلهن . فلو قد ولي الخلافة قبل أن يفترق الناس لكان خليفاً أن يقارب بين العصبية المتباعدة ، وأن يجمع الناس على طاعته ، وأن يحملهم على الجادة كما قال « عمر » .

ولكن المسلمين لم يختاروه لأمرين :

أحدهما : خوف قريش أن تستقر الخلافة في « بني هاشم » إن صارت إلى أحد منهم . وقد بينت الحوادث أن « علياً » لم يكن لينقل الخلافة بالوراثة ، فهو قد سار سيرة « النبي » وسيرة « عمر » فلم يعهد لأحد من بعده .

والآخر : أن « علياً » لم يقبل ما عرضه عليه « عبد الرحمن » من أن يبايع على كتاب الله ، وسنة رسوله ، وفعل « أبي بكر » و« عمر » لا يجيد عن شيء من ذلك . تخرج « علي » من أن يعطى هذا العهد ، مخافة أن تضطره الظروف إلى أن يقصر عن الوفاء به كاملاً ، فعرض أن يبايع على أن يلزم كتاب الله ، وسنة رسوله ، وسيرة الشيخين بقدر جهده وطاقته (٣٩) .

وللمرة الثالثة لم يتولى سيدنا « علي » الخلافة : إنما تولها سيدنا « عثمان » واستمر سيدنا « علي » المنارة ، والهدى ، والمثل الأعلى . وحدثت الأحداث التي انتهت بقتل سيدنا « عثمان » ... وتولى سيدنا « علي » الخلافة فلم يتغير سلوكه ولم ينحرف عن الجادة .

وقد عاش « علي » قبل الفتح ، كما عاش بعد الفتح ، عيشة هي إلى الحشونة والشظف ، أقرب منها إلى الرقة واللين : فلم يتجر ، ولم يتسع ، وإنما اقتصر على عطائه يعيش منه ، ويرزق أهله ، ويستثمر فضوله في مال اشتراه يبييع ، ثم لم يزد عليه .

ولما مات لم تحصى تركته بالألوف ، فضلاً عن عشراتها أو مئاتها أو الملايين ، وإنما كانت تركته كما قال « الحسن ابنه » في خطبة له : سبعمائة درهم ، كان يريد أن يشتري بها خادماً .

وكان « علي » في أثناء خلافته القصيرة ، يلبس خشن الثياب ، والمرقع منها ، ويحمل الدرّة ، ويمشي في الأسواق ، فيعظ أهلها ، ويؤدبهم ، كما كان يفعل « عمر » فكان هذا دليلاً على أن « عمر » كان صادق الفراسة حين قال : « لو ولّوا الأجلح لحملهم على الجادة (٤٠) » .

حقاً لقد كان سيدنا « علي » مثلاً سامياً في الدين والأخلاق ، ومع ذلك فإنه لم يكذب يتولى الخلافة بعد مقتل سيدنا « عثمان » ، حتى اضطرب الأمر ، واختل النظام .

(٣٩) عثمان المذكور طه حسين ، ص : ١٥٢ - ١٥٣ . (٤٠) عثمان ، ص : ١٥ .

أراد سيدنا « على » أن يقود الناس إلى الآخرة ، فإذا هم متطلعون إلى الدنيا ، وأراد أن يوجههم إلى الله ، فإذا بالمادة قد غلبت عليهم ، ولقد عاش طيلة خلافته في جلاذ وصرع ، ضد الأهواء ، والشهوات ، والدنيا .

وفي النهاية لقي مصرعه على يد « عبد الرحمن بن ملجم » . وتغلبت الأهواء ، والشهوات ، والدنيا . ممثلة في « معاوية » .

وانتصرت الدنيا ، ولكن كان للآخرة عشاقها ومحبوها ، وهؤلاء لم يتوانوا في نصرة « على » حيا ، فلما قتل أخذوا يذكرون حياته الحافلة بصالح الأعمال وجليلها ، وأخذت صورة « على » - بمر الزمن - تلبس ، شيئاً فشيئاً هالة من الإجلال ... والتفديس ... والتتريه ... والريانية ... والألوهية ... و... وهل من مزيد ؟ .

كانت « الشيعة » - في بدء أمرها - محبة كمحبة « سلمان الفارسي » « لآل البيت » ثم أصبحت محبة ، وعطفاً ، وشفقة ، حينما اعتقد بعض الناس : أن « البيت العلوي » لم يأخذ المكانة اللائقة في المجتمع . فلما أصبح الظلم : اضطهاداً ، وتعدياً ، وتشتيئاً ، وبتراً للأعضاء ، وسلباً للعيون ، وقتلاً ... تكونت « الشيعة » بالمعنى الاصطلاحي المعروف الآن ... وكان رجال « البيت العلوي » ومن يعطف عليهم ، يغذون الفكرة ، ويمدونها بما استطاعوا من مال ، ومن تشجيع ...

ولكن الأفكار - إذ ذاك - لم تكن تسير بالمال والتشجيع فحسب ، وإنما كانت تتطلب سنداً من الدين لا مناص منه .

ولجأت « الشيعة » إلى القرآن ، وإلى السنة ، تستمد منها - في يسر ، أو في تعسف - ما يعينها على ما تريد ...

وآل أمر « الشيعة » إلى شيع ، وأفرط الكثير منها في « على » وغالي ، والحب - حقاً - يعمى ويصم : فكان من ذلك ، الغلاة .

ولعل فيما تقدم ، ما يدل على أن أصل « الشيعة » لم يكن يهودياً ، ولم يكن فارسياً ، كما يزعم بعض المستشرقين ، وإنما نشأت الشيعة نشأة طبيعية ، ونمت نمواً طبيعياً .

فرق الشيعة :

ويرغم أن (الشيعة) تفرقت إلى ما لا يكاد يحصى من أحزاب ، فإنه من الممكن تقسيمها إلى :

١ - غلاة .

٢ - إسماعيلية ؛ وما تفرع عنها .

٣ - إمامية اثنا عشرية .

٤ - زيدية .

أما الغلاة ، فقد بادوا ، وانقرضوا ، وقد تبرأ منهم الشيعة : الإمامية منهم ، والزيدية . يقول الشيخ « محمد الحسين آل كاشف الغطاء » ، في رده على بعض الناقدين « للشيعة » .
 « فهل مراده ما يسمونه » : « غلاة الشيعة » « كالحطابية » و « الغرابية » و « العلياوية » و « الخُمسة » ، و « البزيعية » ، وأشباههم من الفرق الهالكة « المنقرضة » التي نسبتها إلى الشيعة من الظلم الفاحش ، وما هي إلا من الملاحدة : (كالقرامطة) ، ونظائرهم . أما « الشيعة الإمامية » ، و « أئمتهم » « ع » فيبرءون من تلك الفرق « براءة التحريم »^(٤١) .
 أما « عبد الله بن سبأ » الذي يلصقونه « بالشيعة » أو يلصقون « الشيعة » به - فهذه كتب « الشيعة » بأجمعها تعلن بلعنه ، والبراءة منه ، وأخف كلمة تقولها كتب رجال « الشيعة » في حقه ، ويكتفون بها عن ترجمة حاله عند ذكره في حرف العين هكذا : « عبد الله بن سبأ » ألعن من أن يذكر^(٤٢) .

وأما « الإسماعيلية » ، وهم منتشرون في الهند ، والباكستان ، وجنوب إفريقيا وشرقها : فلسنا الآن بصدد الحديث عنهم ، وعن مذهبهم ، وقربه وبعده عن الدين ، وصلته أو عدم صلته بالأفلاطونية الحديثة أو غيرها من مذاهب ، وسنترك ذلك لفرصة أخرى إن شاء الله .
 سنقتصر في الحديث إذاً على « الإمامية الإثنا عشرية » و « الزيدية » و « الشيعة الإمامية الاثنا عشرية » يمثلون - كما يقول الشيخ « محمد الحسين آل كاشف الغطاء » - أكثرية أهل السواد في « العراق » ، وتسعة أعشار « إيران » ، وجاعات في « القفقاز » من « الاتحاد السوفيتي » و « جبل عامل » من « الشام » ، وجزر « البحرين » و « الكويت » وسواحل « الأحساء » ، و « الهند »^(٤٣) .

ويقول « الدكتور أحمد أمين » : « ويبلغ « الإمامية » الآن نحواً من سبعة ملايين في « فارس » ، ونحو مليون ونصف في « العراق » ، وخمسة ملايين في « الهند »^(٤٤) .
 و « الزيدية » هم « الشعب اليمني » على الخصوص .

(٤٣) أصل الشيعة .

(٤١) أصل الشيعة ، ص : ٤٦ - ٤٧ .

(٤٤) ضحى الإسلام ، ص ٢١٣ .

(٤٢) أصل الشيعة ، ص : ٥٠ .

- ١ - والإمامية والزيدية يتفقون على أن « عليا » أفضل الخلق بعد رسول الله ، ﷺ .
 ٢ - وأنه لذلك كان أحق بالخلافة من « أبي بكر » و « عمر » أما فيما عدا هذا ، فلا يكادون يتفقون على شيء .

مذهب الإمامية :

والإمامية مجمعون على أن النبي ، ﷺ ، نص على استخلاف « علي » بن « أبي طالب » باسمه ، وأظهر ذلك وأعلنه ، وأن أكثر الصحابة ضلوا بتركهم الاقتداء به بعد وفاة النبي ، ﷺ ، وأن الإمامة لا تكون إلا بنص وتوقيف ، وأنها قرابة ، وأنه جائر للإمام في حالة التقية أن يقول : إنه ليس بإمام ، وأبطلوا جميعاً الاجتهاد وزعموا أن الإمام لا يكون إلا أفضل الناس ، وزعموا أن « عليا » رضوان الله عليه ، كان مصيباً في جميع أحواله ، وأنه لم يخطئ في شيء من أمور الدين ...

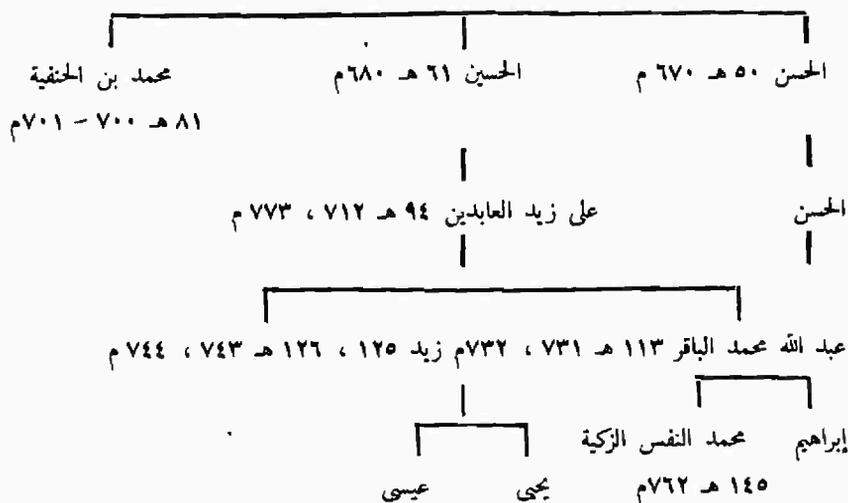
وأنكروا الخروج على أئمة الجور ، وقالوا : ليس يجوز ذلك دون الإمام المنصوص على إمامته ...

وهم يدعون « الإمامية » ، لقولهم بالنص على إمامة « علي » بن « أبي طالب » (٤٥) .
 وسميت : الإمامية الاثنا عشرية ، لأنها تُسلسلُ الأئمة إلى الثاني عشر « محمد بن الحسن ابن علي » وهو الغائب المنتظر عندهم ، الذي يدعون أنه سيظهر فيملاً الأرض عدلاً ، بعد أن ملئت ظلماً وجوراً .

والشجرة التالية تبين تسلسل الأئمة عند فرق « الشيعة » نقلاً عن المستشرق « برنارد لويس » .

آل علي

علي توفي سنة ٤٠ هـ - ٦٦١ م



أئمة الشيعة الاثني عشرية

الأئمة الاثني عشرية

سنة ٢٦٠ هـ - ٨٧٢ ، ٨٧٤ م

الزيدية :

وكان «الإمامية» ، و«الزيدية» في بدء أمرهما : حزباً واحداً ، ثم اختلفا ! والسبب في اختلافهما لم يكن أصلاً من أصول الدين ، وإنما كان حول «الإمامة» ، وهو بين وجهة نظر كل منهما فيها .

يقول - البغدادي : « وسبب افتراقهما » أن « زيد » بن « علي » قد بايعه على إمامته خمسة عشر ألف رجل من أهل الكوفة ، وخرج بهم على والي العراق ، وهو « يوسف » بن « عمر » الثقفى عامل « هشام » بن « عبد الملك » على العراقيين ، فلما استمر القتال بينه وبين « يوسف » بن « عمر » الثقفى ، قالوا له :

إنا ننصرك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك في « أبي بكر » ، و« عمر » اللذين ظلما جدك « علي » بن « أبي طالب » .

فقال « زيد » :

إني لا أقول فيها إلا خيراً ، وما سمعت أبي يقول فيها إلا خيراً ، وإنما خرجت على « بنى أمية » الذين قاتلوا جدى « الحسن » . وأغاروا على المدينة يوم الحرة ثم رموا بيتاً لله بحجر « المنجنيق » والنار فقارقه عند ذلك - حتى قال لهم : رفضتموني ! ومن يومئذ سما : « رافضة »

وبقى « زيد » في مقدار مائتي رجل وقاتلوا جند « يوسف » بن « عمر » الثقفى ، حتى قتلوا عن آخرهم ، وقتل « زيد » ، ثم نبش من قبره وصلب ، ثم أحرق بعد ذلك (٤٦) .

والزيدية يرون أن الأدلة الخاصة بإمامة « علي » - رضی الله عنه - اقتضت تعيينه بالوصف لا بالشخص ، وتقصير الناس إنما أتى من حيث إنهم لم يضعوا الوصف في موضعه .

وهم لا يتبرءون من « الشيخين » ، ولا يطعنون في إمامتها ، مع قولهم بأن « علياً » (٤٧) « أفضل منها » :

ذلك أنهم يجوزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل . ويشترطون بأن يكون « الإمام » عالماً ، زاهداً ، جواداً ، شجاعاً ، ويخرج داعياً إلى إمامته .

(٤٦) الفرق بين الفرق للبغدادي : ص ٢٥ ، ط المعارف .

(٤٧) « ابن خلدون » ص ١٣٩ ، ط عبد الرحمن محمد .

وقد كان « زيد » يناظر أخاه « محمد الباقر » على اشتراط الخروج في الإمام ، فليزمه « الباقر » ألا يكون أبوهما « زين العابدين » إماماً ، لأنه لم يخرج ، ولا تعرض للخروج :
 وكان « الباقر » ينمى عليه أيضاً مذاهب « المعتزلة » وأخذها إياها عن « واصل ابن عطاء »^(٤٨) .

و « الزيدية » سمو بذلك نسبة إلى صاحب المذهب وهو « زيد بن علي بن الحسين السبط » .
 وقد ساق الزيدية « الإمامة » على مذهبيهم فيها ، وإنما باختيار أهل الحل والعقد ، لا بالنص ؛ فقالوا بإمامة « علي » ، ثم ابنه « الحسن » ، ثم أخيه « الحسين » ، ثم ابنه « علي زين العابدين » ، ثم ابنه « زيد بن علي » ، وهو صاحب هذا المذهب ؛ وخرج بالكوفة ، داعياً إلى « الإمامة » ، فقتل وصلب .

وقال الزيدية بإمامة ابنه « يحيى » من بعده ، ففضى إلى « خراسان » ، بعد أن أوصى إلى « النفس الزكية » فخرج بالحجاز وتلقب « بالمهدى » ، فأرسل إليه « المنصور » جيشاً ، فقتل .
 بعد أن عهد إلى أخيه : « إبراهيم » الذى قتل « بالبصرة »^(٤٩) .

الشيعة وأصول الإسلام

نرى مما سبق : أن الشيعة تكونت في المبدأ جماً في « علي » : لقربته من الرسول ﷺ ولشخصيته الفذة . ثم تطورت فأصبحت « حزب البيت العلوى » .
 ونظرياتها دارت - أولاً وبالذات - حول الإمامة ، وحول الإمام :
 « فالمهدى » إمام من أئمتهم ، يعود فيملاً الأرض عدلاً ، كما ملكت جوراً . و « العصمة » لأئمتهم ، لا شك فيها ، بحسب نظرهم .
 و « الغيبة » التى تعقبها « الرجعة » إنما هى لإمام : هو آخر الأئمة ، اختفى ، وهم فى انتظار عودته ، مها طال الزمن .

و « التَّقِيَّة » إنما وجبت لإحكام العمل حتى يتولى « البيت العلوى » الرياسة ...

أين الخلاف فى الأصول فى كل هذا ؟

يقول الشيخ « محمد الحسين آل كاشف الغطاء » فيما يتعلق بموقف « الشيعة الإمامية » من

الغلاة الذين يتبرأ منهم كل مسلم :

(٤٨) مقدمة « ابن خلدون » ، ص : ١٤٠ .

(٤٩) مقدمة « ابن خلدون » ، ص : ١٤٠ ، ط عبد الرحمن محمد .

أما الشيعة الإمامية ، وأغنى بهم جمهرة العراق ، وإيران ، وملايين من مسلمى الهند ، ومئات الألوف في سوريا ، والأفغان ؛ فإن جميع تلك الطائفة ، من حيث كونها شيعة : يبرءون من تلك المقالات . ويعدونها من أشنع الكفر والضلالات : وليس دينهم إلا التوحيد المحض ، وتنزيه الخالق عن كل مشابهة للمخلوقات ، أو ملابسة لهم ، في صفة من صفات النقص ، والإمكان ، والتغير ، والحدوث ؛ وما ينافي وجوب الوجود ، والقدم ، والأزلية ؛ إلى غير ذلك من التثنية . والتفديس المشحونة به مؤلفاتهم في الحكمة ، والكلام من مختصره : كالتجريد ، أو مطولة كالأسفار ، وغيرهما مما يتجاوز الألوف ، وأكثرها مطبوع منتشر ، وجعلها يشتمل على إقامة البراهين الدامغة على بطلان التناسخ ، والاتحاد ، والحلول ، والتجسيم^(٥٠)

رأينا في الشيعة :

« الشيعة » : حزب ، وهم لذلك يزيفون كل ما يقف عقبة في سبيل توطيد مركزهم ، ويتهافنون على كل ما يتوهمون أنه يساعدهم ، ويؤولون التاريخ حسب ما تهوى نفوسهم : فإذا ما تركنا العصبية جانباً فإننا نرى - في إخلاص - أنه لو كان هناك ما يشبه - ولو من بعد - أن يكون رغبة « للرسول » في أن يتولى « على » الأمر من بعده ، لسارع « أبو بكر » و « عمر » إلى بيعته .

إن إخلاص « أبي بكر » و « عمر » لله ، ولرسوله ، وللدین ، أسمى وأجل من أن يتطرق إليه ظل من الشك .

وسيدنا « عمر » - رضی الله عنه - حينما دهمته الطعنة المشثومة ، وأوشك أن يلاقى ربه ، وأراد أن يخرج من الدنيا ، ولم يأل جهداً في الإخلاص لربه ، وللأمة الإسلامية ... لم يول « علياً » ، وإنما جعل الأمر شورى ، بين ستة نفر ، هم أمثل الأمة الإسلامية في نظره ، ومن بينهم « على » رضوان الله عليه .

ولم يتنه مجلس الشورى هذا باختيار « على » .

ولما تنازل « عبد الرحمن بن عوف » عن ترشيح نفسه ، ليختار الخليفة - وكان الأمر بيده -

لم يختَر « علياً » وإنما اختار « عثمان » رضی الله عنها .

ثم إنه امتنع عن بيعه « على » « سعد بن أبي وقاص » بطل « القادسية » وفتح « فارس »

وأول من رمى بسهم في سبيل الله ، وأحد هؤلاء الذين توفى « الرسول » وهو راض عنهم ، ومطمئن إليهم .

وامتنع عن بيعته « عبد الله بن عمر » ، الرجل الزاهد ، الورع ، الذي آثر الله في كل تصرفاته .

وامتنع عن بيعته أيضاً « أسامة بن زيد » - وصلته « بالرسول » معروفة - وتقدير « الرسول » له أشهر من أن يمارى فيه اثنان .

وامتنع عن بيعته « محمد بن مسلمة » ومكاته في الأنصار معروفة .

وامتنع عن بيعته غير هؤلاء ممن أراد السلامة لدينه ، والبعد عن الفتن .

على أن أصول الإسلام العامة تستوجب المساواة بين المسلمين في الحقوق ، والواجبات ، وتجعل الأكرم هو الأتقى .

والحق أن الأمة الإسلامية - على اختلاف طبقاتها - تقدر « عليا » تقديراً كريماً ، وتترله من نفسها منزلة سامية ، أما ما وراء ذلك من آراء « الشيعة » الغالية منهم والمعتدلة ، فليس ديناً ، وليس ضرورة عقلية .

وإننا نعتقد - في إخلاص - أن الزمن كفيلاً يرد « الشيعة » إلى السنن القويم . وبالله التوفيق .

في علامات الساعة

من الأمور التي يجب الإيمان بها كما جاءت عن الصادق المعصوم عليه السلام علامات الساعة لأنها من الأمور الغيبية ، ومن علامات الساعة إتيان المهدي ونزول عيسى عليه السلام . وقد ورد بذلك الآثار عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإتيان المهدي قبل عيسى عليه السلام ، ثم نزول عيسى يكون عند خروج الدجال فينزل فيقتله ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية كما ورد في الحديث ..

ونزول عيسى عليه السلام إنما هو تأكيد لرسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأنه سينزل عاملاً بشرية الإسلام مؤيداً لها ناشراً عبادتها وتعاليمها ، صلوات الله وسلامه على رسل الله أجمعين ..

في الإمام المهدي المنتظر

خبر ظهور المهدي جاءت به نصوص السنة الصريحة وأنه سيكون أول ظهوره بمكة المكرمة ، وسيكون قبل نزول المسيح عيسى بن مريم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وسيظل قائماً بأمر المسلمين يتولى شئونهم ويقودهم في جهاد عدوهم ، حتى ينزل المسيح بن مريم حاكماً بشرية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم منفذاً لقواعد الإسلام والمفهوم من جو الأحاديث الخاصة بالمهدي أنه قائد عربي مناضل مجاهد يحاول نشر العدالة ورفع الظلم كما جاء في الأحاديث الخاصة في أسلوب صريح . واضح . وأنه ينزل سيدنا عيسى عليه السلام وقد أقيمت الصلاة فيتحنى المهدي للمسيح من إمامة المسلمين في تلك الصلاة فيدفعه المسيح عيسى بن مريم بين كتفيه ويقول له : لك أقيمت فصل ، فيصلي بالمسلمين تلك الصلاة ثم يتسلم سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام القيادة منه ، ثم يذهب إلى الدجال فيقتله ..

ومن أخبار المهدي ما رواه الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي ، وفي لفظ آخر حتى يلي رجل من أهل بيتي .

وعن علي رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً » أخرجه أبو داود .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول صلى الله عليه وسلم : المهدي مني ، أجلى الجبهة .

أقنى الأنف ، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً يملك سبع سنين ... أخرجه أبو داود .

وهذا الحديث وإن كان في ظاهره انقطاع إلا أنه بالنسبة للأحاديث الواردة في وجود المهدي وولايته للمسلمين صحيح المتن وهو بذلك يوجب على المسلمين التحرز من رفض ما جاء في المهدي من أخبار وتفهم من الأحاديث الواردة فيه أنه ليس خاصاً ببقعة من الأرض كنيجيريا مثلاً أو غيرها وإنما قائد للمسلمين بدليل قول النبي ﷺ يملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً .

والجو العام لأحاديث المهدي يبشر بتحقيق الدولة العالمية التي تضم جميع أقطار الأرض تحت راية واحدة وهي راية العدل والخير والحق ، وهو أمل يسعى له كثير من الذين يريدون للإنسانية خيراً ، ويطنون بها خيراً ، وهو حلم راود الكثير من الفلاسفة خطط له الفارابي مثلاً حينما كتب عن عالمية الحكم بمناسبة كتابته عن المدينة الفاضلة .

والأحاديث عن المهدي أيضاً تذكير للمسلمين بأن من رسالتهم إزالة الظلم والجور من العالم أجمع ونشر الحق والخير وتحقيق العدالة .
والله أعلم ...

في نزول المسيح عليه السلام إلى الأرض مرة ثانية

نعم سينزل المسيح عليه السلام إلى الأرض مرة ثانية وسيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويرد بنفسه على من آلهوه وبدلوا شريعته وأنكروا ما جاء به من التبشير بسيدنا محمد ﷺ كما قال تعالى :

(وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) .

والدليل على ذلك قوله ﷺ :

والذي نفسى بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم ﷺ حكماً مقسطاً -- أى عادلاً -- فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد وفي رواية : يقول أبو هريرة راوى الحديث : اقرءوا إن شئتم (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ...) أى وما من أحد من أهل الكتاب يكون في زمن نزول عيسى عليه السلام إلا ويؤمنن به

إيماناً صحيحاً قائماً على أساس أنه عبد من عباد الله وأنه مقر لنبينا بالرسالة . وفي رواية عن الرسول ﷺ قال :

« والله ليزلن ابن مريم حكماً عادلاً فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير .. »

بل إن عيسى عليه السلام حينما ينزل يبلغ من تقديره للرسول ﷺ ورسالته أن يمتنع عن التقدم على إمام المسلمين الذي يصلى بهم يقول ﷺ .

« ولا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، قال : فينزل عيسى ابن مريم ﷺ ، فيقول أميرهم تعال صل لنا . فيقول : لا إن بعضكم على بعض أمراء تكرمه الله هذه الأمة . »

قال الإمام النووي : في قوله ﷺ ، حكماً : دليل على أن عيسى عليه السلام ينزل حاكماً بهذه الشريعة أى الإسلام - ولا ينزل نبياً برسالة مستقلة وشريعة ناسخة بل هو حاكم من حكام هذه الأمة .

وما من شك في أن محمداً ﷺ هو خاتم النبيين والرسول بنص القرآن الكريم يقول سبحانه :
(وخاتم النبيين) .

وكونه ﷺ خاتم النبيين إنما يؤخذ أيضاً من أن الله سبحانه تكفل بحفظ القرآن من كل تحريف أو تبديل : يقول سبحانه : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) . فالذكر أى القرآن بمثابة رسول دائم قائم في الإنسانية يحق الحق وسيبطل الباطل ، والله سبحانه وتعالى بهذا الحفظ يشير إلى أن محمداً ﷺ لا تزال رسالته قائمة محفوظة ، وكأنه بذلك بيننا مبشر وهاذٍ ونذير ، ورحمة لكل من اتبعه فتزول عيسى عليه السلام إنما هو من أجل التبشير بدعوة نبينا والعمل على إقامتها ، ومما له مغزاه العميق أن رسول الله ﷺ يقول عن سيدنا موسى : « والله لو كان موسى حياً ما حل له إلا اتباعي » وكذلك الأمر في سيدنا عيسى فلو كان حياً ما حل له إلا اتباع محمد رسول الله ﷺ .
والله أعلم .

في المسيح الدجال

المسيح الدجال إنسان مولود من أبوين كسائر البشر ، فسيدينا عمر رضوان الله عليه ظن أنه ابن صياد ، وكان ابن صياد مولوداً من أبوين ، وقد أراد سيدنا عمر أن يقتله ، فنهاه الرسول ﷺ قائلاً له : إن يكن فلن تسلط عليه ، وإن لا يكنه فلا خير له في قتله . فهو موجود إذاً واستعادة

الرسول صلوات الله عليه منه إنما كانت تعليماً للأمة وتحذيراً لها منه . وسيظهر قبل قيام الساعة .
وأما علامات قدومه فذلك عندما يخف وزن الإيمان في النفوس ، ويغزو الشر القلوب وتكثر
الخلافات ويسود الشغب .

أما الفتنة التي ستحدث فإن ضعاف الإيمان وجرهم عن طريق الرغبة وعن طريق الرهبة إلى
اتباعه والكفر بالدين الصحيح ، كفر مطلق ، وهي أيضاً ذلك الصراع الرهيب بينه هو وأتباعه
من جانب . وبين من استمسكوا بالإيمان واعتصموا بحبل الله وقانا الله شره ، وأعادنا من الفتن ..
والله أعلم ..

في عمد بعض اللادينيين إلى الخلط بين المذاهب الفنية والأدبية وبين المذاهب الاقتصادية والاجتماعية الوثيقة الصلة بتصور العقيدة

المذاهب الفنية والأدبية التي تتعلق بوسيلة التعبير ، وكيفية توصيل المعاني إلى الناس لا يقيدھا
الدين إلا من ناحية ما تعبر عنه ، أى أن الدين يهتم بالمعنى المعبر عنه ، وبأن تكون وسيلة التعبير غير
مفيدة معنى آخر ، وبأن يكون هذا المعنى في إطار الخير ..
ومن المفيد أن نشير إلى قوله تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) أى أن
الرسالة لا يمكن أن تصل إلى المرسل إليهم إلا إذا كانت بلغة يعرفونها ولسان يفهمونه ..
وقد أوجب الإسلام تعلم لغات الناس لتوصيل الدعوة إلى غير العرب انطلاقاً من قاعدة
ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وانطلاقاً من هذه القاعدة تنوعت أساليب القرآن من محاورات عقلية إلى أمثال حسية ، إلى
قصص أدبية ، ليتسع مجال فهمه لكل العقول ولشئى البيئات وهو سر من أسرار الإعجاز فيه ، إن
كل إنسان مها كانت درجة ثقافته يفيد منه ، ولا يمكن أن يرتفع إنسان مها علت ثقافته عن
مستوى التعبير القرآنى الكريم .

وفي السنة الشريفة تنوعت أساليب الرسول ﷺ ما بين استفهام لتبنيه الأذهان إلا ما يليق من
علوم ، وتوجيه مباشر ، وسؤال لاستخراج المعلومات من الناس ثم تصحيح هذه المعلومات إلى
غير ذلك مما يجده الباحثون .

ومذاهب التعبير إذن مذاهب إنسانية تختلف باختلاف أحوال الناس ونظمهم ودرجة

ثقافتهم ، والإسلام لا يقيدها كما قلنا إلا من ناحية ما تعبر عنه ، ومن ناحية الألفاظ المستخدمة في التعبير .

أى أن الإسلام لا يبيح الخروج على آدابه ولو في اللفظة المستعملة في التعبير ، ويترك للمسلم بعد ذلك أن يعبر عن فكرته بالأسلوب الذى يرد ، دون أن يقيدته بمذهب ما ، فلم يأت الإسلام بمذهب للتعبير لا يرضى غيره ... وهكذا ...

هذا عن المذاهب الفنية والأدبية .

أما المذاهب الاقتصادية والاجتماعية فقد رسم الإسلام إطاراً للتحرك في مجالها بما سنَّه من تكاليف وقرره من قواعد .

فأسلوب التصرف في المال مقيد في الإسلام بمراعاة أن يكون مصدره من حلال ، وبأن يدفع حق الله منه وهو الزكاة ، وبألا يفرط في حق لازم عليه كالنفقة على أهل بيته ، وصلة رحمه ، وهكذا ...

أما كيفية العمل فقد ترك الإسلام للناس طريق التطور في استخراج خيرات الأرض عن طريق الصناعة بطرقها المختلفة أو الزراعة أو التخصص في مجال من المجالات . والمذاهب الاجتماعية رسم الإسلام لها أطراً لا ينبغي الخروج عليها ، كنظام النكاح والطلاق وسائر ما يتعلق بتكوين الأسرة ، وتركيب المجتمع ، ومسئولية المسلم من غيره من المسلمين ، وفيما عدا ذلك ترك الإسلام للمسلم أن ينظر في نظم المجتمعات المختلفة ، ويؤسس النظريات على أساس من هذا النظر ، ليظهر روعة الإسلام فيما قرره من أحوال المجتمعات ، ليتكون له من البصر بشئون الدنيا ما يمكنه من نشر تعاليم الإسلام أو تطبيقها إن كان ممن يملك وسائل التطبيق .

المذاهب الفكرية والفنية إذن وسائل للتعبير لا يقيدتها الإسلام إلا من حيث ما تعبر عنه ، والمذاهب الاقتصادية والاجتماعية - إن وافقت الإسلام أخذ بها على أنها إسلام أو وضع إلهي لا على أنها أفكار بشرية ، وإن خالفت الإسلام ضمرنا بها عرض الحائط ، إذ المسلم لا يرى خيراً فيما لا يوافق دينه ، وإلا كان متناقضاً مع نفسه .

(أفغير دين الله يبيغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون) .

في أهل الفترة

من عاش ومات قبل الرسول ﷺ وقبل نزول القرآن الكريم يسمون أهل فترة ، وهؤلاء قد اختلف في حكمهم علماء التوحيد .

فيرى أهل السنة أنهم ناجون وليسوا بمكلفين لقوله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) .

ولقوله تعالى : (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة) وآية : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) صريحة كل الصراحة في أن أهل الفترة ناجون وهم لا يعثون على دين معين ، ونجاتهم إنما هي بفضل الله ورحمته .

في أول من كفر بعد مجيء الإسلام ، ومن هو أول من حاول تشويه الإسلام

إذا دخل الإيمان في القلب وشع نوره على الأعضاء ، فإن المؤمن لا يمكن أن يرتد عنه ولا يتأق الكفر إلا ممن دخل في الإسلام لمجرد منفعة ، أو مصلحة تعود عليه . فإذا لم تتحقق هذه المصلحة فإنه يرجع عن دينه ، وهذا هو الذي لا يغير الله له ذنبه ولا يتجاوز عن سيئاته . قال تعالى : (إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً) .

أما أول من حاول تشويه الإسلام فهم اليهود ، كانوا في عصر الرسول ﷺ يشككون في الإسلام ويقولون للذين كفروا إنهم أهدي سبيلاً من محمد وقومه قال تعالى في سورة النساء . (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدي من الذين آمنوا سبيلاً ، أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً) . وبعد عصر الرسول ﷺ دخل كثير منهم في الإسلام ليكيدوا له ويدسوا سمومهم فيه ويشوهوا تعاليمه فلدسوا الإسرائيليات في تفسير القرآن ، ووضعوا كثيراً من الأحاديث ونسبوها للنبي ﷺ . بيد أن المسلمين الصادقين كانوا لهم بالمرصاد فبينوا زيفهم ونهبوا على كل دسيسة حاولوا بها الكيد للإسلام وصدق الله تعالى إذ يقول :

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .